الدعاء في القرآن الكريم

إعداد

مؤسسة الباحث
للاستشارات البحثية والنشر الدولي بالقاهرة

الدعاء في القرآن الكريم

دراسة من إعداد
مؤسسة الباحث
للاستشارات البحثية بالقاهرة

مجموعة من الأكاديميين في مجال العلوم الإنسانية
إشراف / د. السعيد مبروك ابراهيم

٢٠١٨

الفصل الأول : الدعاء في القرآن الكريم مفهومه ودلالته.

المبحث الأول: مفهوم الدعاء:

المطلب الأول: الدعاء في اللغة:

الدعاء في اللغة مصدر للفعل دعا ، وهو "طلب الطالب للفعل من غيره"

وعرّفه صاحب لسان العرب بأنه : الرغبة إلى الله ، يقال دعاه دعاءً ودعوى ، ثم بين أصل همزة الدعاء فقال : " والدعاء واحد الأدعية ، وأصله دُعاوٌ ، لأنه من دعوت ، إلا أنّ الواو لما جاءت بعد الألف هُمزتْ ، ويقال : دعا الرجل دعْواً ودعاءً : ناداه ، والاسم الدعوة، ودعوت فلانا أي صحتُ به واستدعيته" [١].

وأشار الزبيدي[٢] إلى أنّ أصل الدعاء مصدر من "دعوت الشيء أدعوه دعاءً ، أقاموا المصدر مقام الاسم : تقول سمعتُ دعاءً كما تقول سمعت صوتاً " [٣].

وأما ابن فارس[٤] فقال : (دَعَوَ) الدال والعين والحرف المعتل ، أصلٌ واحد ، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك ، تقول : دعوت أدعُو دعاءً ، ثم أشار إلى بعض المعاني للدعاء فقال : " والدَّعوة إلى الطعام : بالفتح ، والدِّعوة في النسب : بالكسر وداعية اللبن : ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده وتداعت الحيطان، وذلك إذا سقط واحد وآخرُ بعده ، فكأنما الأول دعا الثاني"[٥].

فيلاحظ أن ابن فارس أرجع هذه المعاني كلها إلى إمالة الشيء .

وأضاف الكرمي[٦] معانيَ أُخَر للدعاء فقال : " (دعا يدعو دَعْوا ودعاءً ودَعْوى) الرجل ربه ، ابتهل إليه وسأله ، ودعا له بالخير ودعا عليه بالموت ودعا زيدٌ صاحبه ناداه وصاح به ، ودعا الأب ابنه زيدا أو بزيدٍ ، سماه زيداً ، ودعاه الله بمكروه أنزله فيه ودعا بالكتاب ، طلب جَلْبَه وإحضارَه ودعاه إلى الشيء حثّه على قصده، ومنه في القرآن الكريم : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [٧] "

---

[١] ينظر : لسان العرب مادة دعا ، ٢٥٧/١٤-٢٥٨ لابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت : ٧١١هـ) ط (١) . بيروت : دار صادر ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ،./ وينظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية مادة دعا ، ٦/ ٢٣٣٧. للجوهري ، إسماعيل بن حماد، (ت : ٣٩٣هـ) تحقيق : أحمد عبدالغفور عطار . ط١ (١) . بيروت : دار العلم للملايين . ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م .

[٢] هو السيد محمد ، الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي ، المصري الحنفي ، ولد سنة ١١٤٥هـ ، من مصنفاته تاج العروس في شرح القاموس،وإتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين، توفي شهيداً بالطاعون سنة ١٢٠٥هـ ينظر : فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات١/ ٥٢٦ - ٥٢٩ للكتاني ، عبدالحي بن عبد الكبير (ت : ١٣٨٠هـ) :. تحقيق : إحسان عباس . ط (٢) . بيروت : دار العربي الإسلامي . ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

[٣] إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ٢٧/٥ للزبيدي ، محمد بن محمد الحسيني المشهور بمرتضى (ت : ١٢٠٥هـ) : . بلا ط وسنة نشر . بيروت : دار إحياء التراث العربي .

([٤]) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي، فإنه كان من أكابر أئمة اللغة ، كان فقيهاً شافعياً حاذقاً، ثم انتقل إلى مذهب مالك في آخر أمره، وكان والد أبي الحسين فقيهاً شافعياً لغوياً، وقد أخذ عنه أبو الحسين، وروى عنه في كتبه، ولابن فارس تصانيف منها : مجمل اللغة ، ومقاييس اللغة ، وفقه اللغة ، توفي سنة ٣٩٥هـ (ينظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٢٣٥ لعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبي البركات، كمال الدين الأنباري (ت: ٥٧٧هـ) تحقيق: إبراهيم السامرائي ،الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

[٥] معجم مقاييس اللغة مادة (دعو) ، ٢٧٩/٢-٢٨٠ لابن فارس ، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت : ٣٩٥هـ) : تحقيق : عبدالسلام محمد هارون . ط (٢) . بيروت : دار الجيل ، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م ،./ وينظر مختار الصحاح ص : ٨٦ للرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (ت : ٦٦٦هـ) :: تحقيق : محمود خاطر . ط(١٤١٥هـ- ١٩٩٥م) . بيروت : مكتبة لبنان ناشرون ،.

[٦] هو أديب إعلامي فلسطيني اسمه حسن سعيد الكرمي ولد في طولكرم سنة ١٩٨٠م ، أبوه سعيد الكرمي رجل علم وفقه من أعماله : قاموس المنار إنجليزي - عربي ، والهادي إلى لغة العرب ، توفى سنة ٢٠٠٧م . ينظر : الهادي إلى لغة العرب ١/ ما بعد الغلاف، للكرمي ، حسن سعيد (ت : ٢٠٠٧م). طبعة (١) . بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر . ١٤١١هـ- ١٩٩١م // وينظر : سنة الوفاة على الموقع الإلكتروني : www.wikipedia.org .

[٧] سورة يوسف: من الآية ٣٣

والمعنى كما أورده الكرمي ، أنه يأتي بمعني السؤال ، والنداء ، والتسمية ، والحثّ على الشيء ، والسَّوق إليه .

وأضاف صاحب اللسان صيغاً غير تلك التي ذكرت ، وذلك استدلالا من كتاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم - الذي بعثه إلى هرقل قائلاً : " أدعوك بدعاية الإسلام"[١] أي بدعوته ، وهي كلمة الشهادة التي يُدعى إليها أهل الملل الكافرة ، وفي رواية
بداعية الإسلام[٢] ، وهو " مصدر بمعني الدعوة كالعافية والعاقبة" [٣].

كما ذكر ابن منظور[٤] مصدراً آخر لكلمة الدعاء وهو (الدعوى) قال : "والدعوى تصلح أن تكون في معنى الدعاء لو قلت : اللهم أشركنا في صالح دعاء المسلمين أو دعوى المسلمين جاز"

وذكر الجرجاني[٥] أنها مشتقة من الدعاء فقال : " الدعوى مشتقة من الدعاء وهو الطلب"[٦] وكذا قال أبو البقاء[٧] في الكليات[٨].

"وإنه بين الدعاوة والدعوى"[٩].

"والدعاوة اسم من الادعاء" [١٠].

<u>مما سبق وبعد تتبع مادة "دعا" نلحظ الأمور الآتية :</u>

<u>أولاً</u> : هناك أكثر من صيغة نصّ علماء اللغة على أنها مصدر لفعل "دعا" وهي كما وردت في هذا البحث : " دَعْوٌ ودعاية وداعية ودعوى ودعاوة".
<u>ثانياً</u> : عند إنعام النظر نجد أن الدعوى والادعاء بينهما تقارب في المعنى ، ويأتيان بالمعنى نفسه في بعض الأحيان هذا ما أشار إليه ابن جرير الطبري حيث قال : وللدعوى في كلام العرب وجهان : أحدهما الدعاء ، والآخر الادعاء للحق ، ومن الدعوى التي معناها الدعاء قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾.

---

(١) صحيح البخاري الحديث : ٧، ٩/١ : لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت : ٢٥٦هـ) : تحقيق : مصطفي ديب البغا .ط (٣) . بيروت : دار ابن كثير – اليمامة . ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م ، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله وقول الله جل ذكره ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ،.//صحيح مسلم ، الحديث : ١٧٧٣ ، ١٣٩٦/٣ ، لأبي الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت : ٢٦١هـ) :. تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، بلا ط وسنة نشر . بيروت : دار إحياء التراث العربي ، كتاب الجهاد والسير ، ٦ – باب كتاب النبي - صلي الله عليه وسلم - إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام .

(٢) صحيح مسلم ١٣٩٧/٣، كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، الحديث : ١٧٧٣.

(٣) لسان العرب ، ٢٥٨/١٤. // وينظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ١٢٢/٢ لابن الأثير ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت : ٦٠٦هـ) : ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي. ط (١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م) . بيروت : المكتبة العلمية ،.

(٣) ابن مكرم :محمد بن مكرم بن على .الإمام العلامة اللغوي المفنن ، جمال الدين الأنصاري الإفريقي المصري. صاحب المصنفات الكثيرة منها: لسان العرب في اللغة في أربعة مجلدات. واختصر نحو خمسمائة كتاب منها الأغاني والعقد والذخيرة. توفي سنة ٧١١هـ (ديوان الإسلام:لشمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (١١٦٧هـ) ، ٢٨٢،٢٨٣/٤: تحقيق /سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط (١)١٤١١ هـ- ١٩٩٠م ،

(٥) هو أبو الحسن على بن محمد بن على السيد الزين الحسيني الجرجاني الحنفي ويُعرف بالسيد الشريف ، من مؤلفاته التعريفات (ت : ٨١٦هــ).// ينظر : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٣٢٨/٥ للسخاوي ، شمس الله بن محمد بن عبدالرحمن (ت : ٩٠٢هـ) :. بلا طبعة وسنة نشر. بيروت : دار مكتبة الحياة .

(٦) التعريفات للجرجاني ص : ١٣٩ ، لعلى بن محمد بن على (ت : ٨١٦هـ) : ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، ط (١) ، بيروت : دار الكتاب العربي . ١٤٠٥ هـ .

(٧) هو أبو البقاء أيوب بن موسى القريمي الكفوي ، صاحب الكليات ، كان من قضاة الأحناف ، ولد سنة ١٠٢٨هــ ، وليّ القضاء بالقدس ، ت : ١٠٩٤هـ// ينظر : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ٣٨/٢ للزركلي ، خير الدين (ت : ١٩٧٦م). ط (٦) . بيروت : دار العلم للملايين . ١٩٨٤م

(٨) ينظر : الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ص : ٤٤٦ لأبي البقاء ، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت : ١٠٩٤هــ) ، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري .ط (٢) . بيروت : مؤسسة الرسالة . ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م

(٩) تاج العروس من جواهر القاموس ٣٨ /٤٨-٤٩ للزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت : ١٢٠٥هـ) تحقيق : مجموعة من المحققين . بلا ط وسنة نشر . دار الهداية .

(١٠) المعجم الوسيط ٢٨٦/١ لمصطفي إبراهيم ، وآخرين ، أشرف على طبعه : عبدالسلام هارون . بلا ط وسنة نشر. طهران : المكتبة العلمية .

وقد أكد صاحب المفردات المعنى الذي ذهب إليه ابن جرير ، حيث استدل من قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ [١] ، على أن الدعوى هي الادعاء ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٢]، على أن الدعوى بمعنى الدعاء [٣].

ثالثاً : يُلاحظ أن المصدرين "دعاية وداعية" يأتيان في مجال الدعوة ، أي دعوة الأمم والملل إلى الإسلام ، وهذا ما أشار إليه غير واحد من العلماء ، استدلالاً من كتاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل[٤].

وعليه فإن الطلب في هذا المعنى يأتي من الأدنى إلى الأدنى ، أي من المخلوق إلى المخلوق ، في حين أن الذي عليه مدار بحثِناً هو الطلب من الأدنى إلى الأعلى أي من المخلوق إلى الخالق.

المطلب الثاني : الدعاء في الاصطلاح:

تعددت تعريفات العلماء للدعاء في الاصطلاح .

فأبو البقاء عرّفه بأنه : " الرغبة إلى الله والعبادة" [٥].

وفي إتحاف السادة ، أضاف الزبيدي أن حقيقة الدعاء في الاصطلاح هي " معنى قائم بالنفس ، وهو نوع من أنواع الكلام النفسي ، وله صيغ تخصه في الإيجاب (افعل) ، وفي النفي (لا تفعل)، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا ...الآية﴾ "[٦].

وأضاف بأنه : الرغبة إلى الله فيما عنده من الخير ، والابتهال إليه بالسؤال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ [٧].

أما الخطابي فعرّف الدعاء في كتابه "شأن الدعاء" ، بأنه "استدعاء العبد ربَّه العناية، واستمداده إياه بالمعونة ، وحقيقته إظهار الافتقار إليه والبراءة من الحول والقوة التي له ، وهو سمة العبودية ، واستشعار الذلة البشرية ، وفيه معنى الثناء على الله" [٨].

أما الحليمي[٩] فقد عبّر عن معني الدعاء بأنه : " قول القائل يا الله يا رحمن يا رحيم، وما أشبه ذلك"
كما أن الدعاء " كلام إنشائي دال على الطلب مع خضوع ويسمى سؤالاً " [١٠].
وعرفه الجرجاني بأنه " قول يَطلب به الإنسان إثبات حق على الغير" [١١].
وعرفه ابن الجوزي [١٢] بأنه "طلب الأدنى من الأعلى تحصيل الشيء" [١٣]
أي: دعاء المسألة.

---

[٣] سورة الأعراف : من الآية (٥)

[٤] سورة يونس : من الآية (١٠)

[٣] ينظر : المفردات في غريب القرآن ص : ١٧٠ للأصفهاني ، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت : ٥٠٢هـ) ، تحقيق : محمد سيد كيلاني . بلا ط وسنة نشر – بيروت : دار المعرفة ..

[٤] ينظر : لسان العرب ، ٢٥٨/١٤.// والنهاية ١٢٢/٢.

[٥] الكليات ، ص : ٤٤٧.

[٦] إتحاف السادة ، ٢٧/٥ .

[٧] تاج العروس ، ٤٦/٢٨.

[٨]: شأن الدعاء ص ٤ للخطابي ، أبي سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم (ت : ٣٨٨ هـ) ، تحقيق : أحمد يوسف الدقاق . ط (٣) . دمشق : دار الثقافة العربية ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

[٩] الحليمي هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم الجرجاني أبو عبدالله فقيه شافعي ، صار إماماً معظماً في الحديث في ما وراء النهر ، له : المنهاج في شعب الإيمان ، ت : ٤٠٣هـ// ينظر : ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت : ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١٣٧/٢. تحقيق : إحسان عباس . بلا ط وسنة نشر . بيروت دار صادر .

[١٠] كشاف اصطلاحات الفنون١٤٢/٢ للتهانوي ، محمد على بن على بن محمد (ت : ١١٥٨هـ) :. وضع حواشيه : أحمد حسن بسج .ط (١) . بيروت : دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م ،.

[١١] التعريفات ، ص : ١٣٩ .

[١٢] هو عبدالرحمن بن على بن محمد بن على بن عبيد الله البكري ، ولد سنة : ٥٠٨هـ وتوفي سنة : ٥٩٧هـ ، له تصانيف في التفسير والحديث والفقه .// ينظر : : طبقات المفسرين ١/ ٦١ للسيوطي ،عبدالرحمن بن أبي بكر (ت : ٩١١هـ) ، تحقيق : على محمد عمر . ط (١) . القاهرة : مكتبة وهبة . ١٣٩٦هـ ،.

[١٣] نزهة الأعين النواظر في علم الوجود والنظائر ص : ٢٩٢ لابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (ت : ٥٩٧هـ) : ، تحقيق :محمد عبدالكريم كاظم الراضي .ط (١) . بيروت : مؤسسة الرسالة . ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

كما يرى ابن القيم[١] : "طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه" [٢].

من خلال تعريفات العلماء لمصطلح الدعاء نلحظ أمرين اثنين :

١- أن كل واحد من العلماء قد تناول جانبا معينا من الدعاء ، تناغمت جميعُها لتصب في معني شامل للدعاء .

فالزبيدي عبّر عن الدعاء من حيث هو رغبة ودافع للدعاء ، ومعنى قائم بالنفس ، وهذا هو الجانب النفسي للكلام ، وهو ركن مهم لحصول ما قصده الزبيدي ثانية وهو (الكلام اللفظي) ، وأما الآخرون فقد أشاروا إلى الجانب اللفظي من الكلام ، وأنه قول، وطلب، وسؤال، وهذا الجانب يتحصل بوجود الجانب النفسي .

٢- كما يُلحظ في تعريف العلماء للدعاء إبراز الجانب التعبدي به فهو ابتهال ورغبة ، واستمداد عَوْنٍ ، وإظهار افتقار وذلة بشرية ، وبراءة من الحول والقوة إلا بالله ، وفيه معنى الثناء على الله ، فكأنما قسّم العلماء من خلال تعريفاتهم ، الدعاءَ إلى نوعين رئيسين في الإجمال : " دعاء عبادة وثناء" و"دعاء سؤال وطلب".

وقد جُمِعَ هذان النوعان من الدعاء في قول ابراهيم – عليه السلام- :﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾[٣].

المطلب الثالث : النبي في اللغة:

النبي في اللغة مشتق من النبأ ، بمعنى الخبر ، قال تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ،عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [٤].

وهو مشتق من النبوة والنباوة ، وهي الارتفاع عن الأرض ، أي أنه أشرف على سائر الخلق[٥].

فالنبي يخبر عما يوحى إليه ، وهو في الوقت نفسه أشرف الخلق وأرفعهم منزلة .

"وإنما سمى النبي : لأنه مخبَر مخبِر ، فهو مخبر ، أي أن الله أخبره وأوحى إليه : ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [٦]، وهو مُخبِر عن الله تعالى أمره ، ووحيه : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ ﴾ [٧]،﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [٨]

المطلب الرابع : النبي في الاصطلاح:

أما في الاصطلاح : فالنبي " مَن نبأه الله بخبر السماء"[٩] .

وعرفه الجرجاني بأنه: " مَنْ أوحيَ إليه بمَلَك ، أو أُلهِمَ في قلبه ، أو نُبّه بالرؤيا الصالحة"[١٠].

وبعد بيان معنى كل من الدعاء والأنبياء ، في اللغة والاصطلاح ، فإننا نستطيع أن نستنتج تعريفاً شاملا للمعنى الذي يدور البحث حوله- دعاء الأنبياء في القرآن الكريم - بأنه (ما ورد عن الأنبياء من ثناء على الله ، وابتهال إليه ، ورغبة فيما عنده ، بإظهار الافتقار، واستمداد العون بسمة العبودية ، لجلب الخير وكشف الضرّ).

---

[١] هو محمد بن أبي بكر بن ايوب بن سعد الزرعي الدمشقي شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي ، ولد سنة : ٦٩١هـ ، قرأ الفقه على ابن تيمية وكذلك الأصول ، كان جريئاً كثير العبادة ، لازم ابن تيمية إلى أن مات ، من أهم مؤلفاته التفسير القيم وبدائع الفوائد ، توفي سنة : ٧٥١هـ// ينظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤٠/٣-٤١ للعسقلاني ، أحمد بن على بن محمد الشهير بابن حجر (ت : ٨٥٢هـ). بلا معلومات نشر .

[٢] بدائع الفوائد ٥١٣/٣ لابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ت : ٧٥١هـ) . تحقيق : هشام عبدالعزيز عطا وآخرين .ط (١) . مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز . ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م ،

(٥) سورة إبراهيم الآيات (٣٨- ٤١)

[١] سورة النبأ الآيتان (١، ٢)

[٥] ينظر: لسان العرب ، ١٦٢/١- ١٦٣.

[٣] سورة التحريم : الآية (٣)

[٤] سورة الحجر :الآية (٤٩)

[٥] سورة الحجر :الآية (٥١)

[٩] شرح العقيدة الطحاوية ص : ١٦٧ للحنفي ابن أبي العز (ت : ٧٩٢هـ) : ، ط (٤) . بيروت : المكتب الإسلامي . ١٣٩١هـ .

[١٠] التعريفات ، ص : ٣٠٧.

المبحث الثاني: مفردات الدعاء ودلالاتها في السياق القرآني

إن الناظر في كتاب الله والمتتبع لورود لفظ "الدعاء" يخلص إلى أن لفظ الدعاء يحمل في طياته اثنيْ عشر معنى .

وبعد النظر في هذه الألفاظ ، تم اختيار بعض المواضع على سبيل المثال لا الحصر؛ لبيان دلالة تلك الشواهد القرآنية ، على تلك الألفاظ . وبيانها كالتالي:

أولا : العبادة :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [١].

أصل العبادة : التذليل ، من قولهم: طريق معبّد، أي : مذلل .

والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب بالمعاني ، حيث كل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم[٢].

وقد ورد ذكر الدعاء في كتاب الله – عز وجل – بمعنى العبادة ، فجاءت مقترنة مع بعضها في الآية نفسها في بعض المواضع ، مما يدل على أنها تؤدي المعنى نفسه ، ومثال ذلك قول الله – عز وجل - : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [٣].

ذكر ابن حجر[٤] أن آخر الآية دل على أن المراد بالدعاء العبادة[٥].

كما ورد تعاقب الدعاء والعبادة في آيات الكتاب العزيز في شواهد كثيرة كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا ﴾ [٦]، يعنى أنعبد من دون الله[٧].

وقد استعملت متصرفات العبادة ضمن الموضوع نفسه كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ [٨] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً ﴾ [٩]، فقد تعاقب ذكر كل من العبادة والدعاء في إطار الحديث عن جهالة المشركين في التوجه لغير الله في العبادة[١٠].

ومن هذا القبيل أيضاً ، ما حكاه القرآن عن قصة إبراهيم – عليه السلام- مع أبيه آزر ، فيقول الله – تعالى - على لسان إبراهيم – عليه السلام – في سورة مريم : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ، فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ [١١].

يظهر جلياً ، أن الآية الكريمة الأولى ، تروي لنا : أن إبراهيم – عليه السلام – أخبر قومه ، أنه سيعتزلهم وما يدعون من دون الله وسيجعل الدعاء لله وحده ، وأما الآية الكريمة الثانية : فتقرر أن إبراهيم – عليه السلام – قد اعتزل قومه وما يعبدون من دون الله ، فانظر كيف وضع القرآن العبادة مكان الدعاء؟![١٢].

---

[١] سورة غافر : الآية (٦٠)

[٢] ينظر: المخصص: ٤ ، ١٣/ ٩٦.

[٣] سورة غافر : الآية (٦٠)

[٤] هو أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلاني ، مصري المولد والوفاة ، شافعي ، يعرف بابن حجر ، محدث ومؤرخ ، أديب وشاعر ، من تصانيفه فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الإصابة في تمييز الصحابة ، والدرر الكامنة ، توفي: ٨٥٢هـ.// ينظر : الضوء اللامع :للسخاوى ، ٣٦/٢.

[٥] فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٠٧/١١ لابن حجر ، أحمد بن على العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) : . تحقيق : عبدالعزيز بن عبدالله بن باز . ط (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م) . القاهرة : دار الحديث .

[٦] سورة الأنعام :الآية (٧١)

[٧] ينظر : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص : ١١٥ للبلخي ، مقاتل بن سليمان (ت : ١٥٠هـ) : ، تحقيق : حاتم صالح الضامن .ط (١) . دبي : مركز جُمعه الماجد للثقافة والتراث . ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م .

[٨] سورة يونس :الآية (١٨)

[٩] سورة المائدة : الآية (٧٦)

[١٠] ينظر : الدعاء للعروسي ١/ ٦٧ .

[١١] سورة مريم: الآيتان (٤٨، ٤٩).

[١٢] ينظر : صراع بين الحق والباطل ص : ٨٤ لمحمد سعد صادق : ، ط (٤) . الرياض : دار اللواء للنشر والتوزيع . ١٣٩٨ هـ- ١٩٨٧م .

ثانياً : النداء :

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [١].

والنداء "مصدر ناديت ، والنداء الاسم ، وهو الصياح" [٢].

وقد ذكر أبو البقاء أنّ " النداء هو رفع الصوت وظهوره ، وقد يقال للصوت المجرد وإياه عُنى بقوله : ﴿ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ [٣] " [٤] .

ولقد جاء النداء بمعنى الدعاء في شواهد قرآنية كثيرة ، ومن هذه الشواهد ما جاء على لسان زكريا – عليه السلام - : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً ﴾ [٥].

فحيث قال في آية أخرى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [٦].

فالآيتان تحدثنا عن دعاء زكريا – عليه السلام - ، تارة بلفظ دعا ، وتارة أخرى بلفظ نادى[٧]، فثبت أن الدعاء كالنداء ، بل قد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر ، قال تعالى : ﴿ ومَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ [٨] .[٩].

"والمعنى ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ، ودويّ الصوت ، في غير إلقاء أذهان ولا استبصار ، كمثل الناعق بالبهائم، التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها ، ولا تفقه شيئاً آخر كما يفهم العقلاء ، والنعيق : التصويت" [١٠].

ثالثاً : الذكر:

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ [١١].

إن الذكر " الحفظ للشيء ... والذكر أيضاً الشيء يجرى على اللسان" [١٢].

وقد ورد إطلاق الذكر على الدعاء والتسبيح ، والشكر ، والطاعة ، والشرف ، وعليه فإن الذكر من الدعاء وذلك استدلالاً من قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : "أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله

فالنبي الكريم عَدَّ حمدَ الله من أفضل الدعاء ، وفي هذا الجانب علل المباركفوري[١٣] سبب هذا الأمر بقوله: إن الدعاء عبارة عن ذكر الله ، وأن يطلب منه الحاجة ، والحمد يشملها فإن حمد الله ، يحمده على نعمته ، والحمد على النعمة : طلب المزيد ، وهو رأس الشكر... ثم أضاف: أن الحمد لله يمكن أن يكون من باب التلميح بالإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [١٤].

---

[٦] سورة الأنبياء : الآية (٨٩)

[٢] المخصص : ١ / ١٣٣.

[٨] سورة البقرة: من الآية (١٧١)

[٤] الكليات ، ص : ٩٠٧.

([١]) سورة الأنبياء : الآية (٨٩)

([٢]) سورة آل عمران :الآية (٣٨)

[٧] المنهاج للحليمي ص : ٥٢٢.

([٤]) سورة البقرة : الآية (١٧١)

[٩] المفردات ، ص : ١٧٠ .

[١٠] تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١/ ١٥٠ لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (٧١٠هـ) راجعه وقدم له : محيى الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب ، بيروت ط (١)١٤١٩هـ-١٩٩٨م ،

([٧]) سورة الأحزاب :الآية (٤١)

[١٢] لسان العرب ، ٣٠٨/٤. // وينظر : المعجم الوسيط ١/ ٣١٣ .

[١] عبد الرحمن المباركفوري ، عالم مشارك في أنواع من العلوم.ولد في بلدة مباركفور من أعمال أعظمكره، ونشأ بها، وقرأ العلوم العربية والمنطق والفلسفة والهيئة والفقه وأصول الفقه على علماء كثيرين.من مؤلفاته: السنن في مجلدين. وتحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي ، توفي سنة ١٣٥٣ هـ .(معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة٥ /١٦٦ (ت: ١٤٠٨هـ) الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت)

[١٤] ينظر : تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي٢٢٩/٩ للمباركفوري ، أبي العلا محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم (ت : ١٣٥٣هـ). بلا ط وسنة نشر. بيروت : دار الكتب العلمية ،.

وقد ذهب ابن تيمية[1] كذلك ، إلى اعتبار الدعاء من الذكر وذلك من باب أن الدعاء هو ذكر للمدعو – سبحانه - يتضمن الطلب والثناء على الله بأوصافه وأسمائه .

وقد علل ذلك بكون الحمد يتضمن الحب والثناء ، والحب أعلى أنواع الطلب ، إذ إن الحامد طالب للمحبوب ، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب ، فالحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب[2].

أما الزجاج [3] فقد بين كيفية تسمية الذكر والثناء دعاء ، منطلقاً من أن النداء من معاني الدعاء ، والإنسان يصدر في الذكر والثناء بالنداء بقوله : يا الله ويا رب ويا حي فكذلك سمى دعاء[4].

وبناء على ما سبق ، فإن الذكر من العبادة ، وبالتالي فهو إلى دعاء العبادة أقرب ، بل إن مفهومه ومفهوم دعاء العبادة متساويان .

قال ابن تيمية : " إن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه"[5].

ويستدل ابن تيمية على ذلك من قوله – تعالى - : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ﴾ [6] حيث أمر – تعالى - نبيه أن يذكر الله في نفسه ، وفي آية الدعاء قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ فذكر التضرع فيهما معا وهو التذلل والانكسار وهو روح الذكر والدعاء[7].

رابعاً : الصلاة :

ومن ذلك قوله – تعالى - : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [8]

فالصلاة الدعاء وهو أصل معانيها[9]. ويقال : صليت عليه أي دعوت له وزكيت[10].

وقد ورد لفظ الصلاة بمعنى الدعاء في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إذا دعي أحدكم فليجب فإن كان صائما فليصل وإن كان مفطراً فليطعم"[11].

وذكَرَ بعض العلماء في معنى قول النبي- صلى الله عليه وسلم - "فليصل" أي فليدع لأهل الطعام بالمغفرة والبركة ، مؤكداً قوله كون الصلاة هي الدعاء مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ "[12]."أي ادع لهم واستغفر لهم،لأن دعاء النبي تسكن نفوس المؤمنين إليه وتطمئن قلوبهم به" [13].

أما عن النسبة بين الصلاة والدعاء فيقول ابن تيمية : " إن الصلاة بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكراً لله أو دعاء له .. وهذا المعنى – وهو دعاء الله – أي قصده والتوجه إليه ، المتضمن ذكره على وجه الخشوع والخضوع ، هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد اسم الصلاة " [14].

---

[1] أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام. ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين. آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان. وفي الدرر الكامنة أنه ناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير، تصانيفه كثيرة قالوا : تزيد على الأربعة آلاف كراسة ، ومات معتقلا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته ، توفي سنة ٧٢٨هـ . الأعلام للزركلي ١٤٤/١، ١٤٥ .

[2] مجموع الفتاوى ١٩/١٥ لابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم الحرّاني (ت : ٧٢٨هـ) . جمع وترتيب : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي . بلا معلومات نشر .

[3] الزجاج :إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (أبو إسحاق) النحوي، اللغوي، المفسر.أقدم أصحاب المبرد قراءة عليه.له من الكتب: معاني القرآن، الاشتقاق، العروض، مختصر النحو.خلق الإنسان (ت :٣١١ هـ) .(معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣٣/١).

[4] معاني القرآن وإعرابه١/ ٢٥٥ للزجاج ، أبي إسحق إبراهيم بن السري (ت : ٣١١هـ) : . شرح وتحقيق : عبدالجليل عبده شلبي . ط(١) . عالم الكتب ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

[5] مجموع الفتاوي ، ١٩/١٥ .

[6] سورة الأعراف:الآية (٢٠٥)

[7] ينظر : مجموع الفتاوي ، ١٩/١٥.

[8] سورة التوبة : من الآية (١٠٣).

[9] ينظر : تاج العروس ، ٣٨/ ٤٣٧ // و مختار الصحاح ١/ ١٥٤ .

[10] المفردات ، ص : ٢٨٥ .

[11] صحيح مسلم ١٠٥٤/٢، كتاب النكاح ، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة ، الحديث : ١٤٣١ ،

[12] ينظر : صحيح مسلم بشرح النووي٢٣٦/٩. ، لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري (ت : ٦٧٦هـ) : ط(٢) . بيروت : دار إحياء التراث العربي . ١٣٩٢هـ .

[13] ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١٤/١١ لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود (ت : ١٢٧٠هـ) ، بلا ط وسنة نشر. بيروت : دار إحياء التراث العربي .

[14] مجموع الفتاوى ، ٢١٥/١٤ .

خامساً : الابتهال :

ومن ذلك قوله - تعالى -:﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾[١]

والابتهال : الاجتهاد في الدعاء وإخلاصه ، وهو التضرع ، ويطلق التبهل على العناء بالطلب[٢].

وقد ورد ذكر المباهلة في كتاب الله في سورة آل عمران ، ردا على من عاند الحق من وفد نصارى نجران، وادعائهم إلهية عيسى– عليه السلام – حيث طلب الحق- سبحانه- من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يطلب منهم القدوم للمباهلة ، وإحضار أبنائهم ونسائهم معهم ، وكذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ثم يدعون الله أن يلعن الكاذبين ، وذلك في قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [٣]، ومن هنا فإن الابتهال هو الدعاء ، ويقول ابن جُزَيّ[٤]: إن الابتهال استعمل في كل دعاء يجتهد فيه ، وإن لم يكن لعنة[٥].

من خلال ما سبق يتبين أن الابتهال خاص بالدعاء المبالغ بأدائه ، والذي يجتهد الإنسان في تحقيقه ، ويكون من صفته الإخلاص .

سادساً : الاستغفار:

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [٦] .

الاستغفار مصدر استغفر ، يقال : " غفر الله ذنوبه أي سترها .. واستغفر الله من ذنبه ولذنبه بمعنى ، فغفر له ذنبه مغفرة وغفرا وغفرانا"[٧].

يظهر لنا أن الاستغفار من الدعاء ، لأن المستغفر يطلب من الله أن يتجاوز عن ذنوبه ويسترها، فهو بذلك يطلب دفع الشر عن نفسه ، فهذا نبي الله نوح– عليه السلام – يطلب من قومه طلب المغفرة لذنوبهم ،فيقول لهم: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾[٨]

كما أن الاستغفار من أنواع الدعاء ، التي يتعبد بها الإنسان لخالقه ، فهو خاص بأمور العبادة ، وبذلك فإن الدعاء يعم طلب الخير ودفع الشر ، والاستغفار يختص بدفع الشر ، وهو طلب مغفرة الذنوب .

---

[١] سورة آل عمران: الآية(٦١)

[٢] ينظر: لسان العرب ، ١١/ ٧٢ .

[٤] سورة آل عمران: الآيات(٦٠،٦١،٩٥)

[٤] هو أبو القاسم محمد بن جزى الكلبى الغرناطي ، ألف في فنون العلم منها : وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم ، والقوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية ، وتقريب الوصول إلى علم الصول ،توفى شهيداً في واقعة طريف سنة : ٧٤١هـ//ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٢١٣، لمخلوف ، محمد بن محمد (ت : ١٣٦٠هـ) : بلا ط وسنة نشر .دار الفكر .

[٥] ينظر: التنزيل لعلوم التسهيل،١٠٩/١،لابن جُزي محمد بن أحمد محمد الغرناطي الكلبي(ت٧٤١ه)،ط(٤) بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

[١] سورة التوبة:الآية(٨٠).

[٧] لسان العرب ، ٢٥/٥- ٢٦ .

[٣] سورة نوح:الآية(١٠) .

سابعاً : الاستعاذة :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [١]

والاستعاذة من "عاذ به يعوذ عوذا وعياذا ومعاذا ، لاذ به ، ولجأ إليه واعتصم"[٢]

والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله - تعالى - ، والالتصاق بجانبه ، من شر كل ذي شر[٣]

يفهم من ذلك أن الاستعاذة تكون من شيء مكروه ؛ لدفع ضره ، فهي من الدعاء بدفع المكروه ، كما أن فيها التجاء واعتصاما وافتقارا إلى الله .

يقول ابن القيم : " لفظ عاذ وما تصرف منها ، يدل على التحرز والتحصن والنجاة ، وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه ، إلى من يعصمك منه"[٤].

وقد ورد الدعاء بلفظ الاستعاذة على لسان يوسف – عليه السلام- مرتين ، في الأولى التجأ فيها إلى ربه مفتقرا إليه ؛ ليعصمه من زلل المعصية ، وذلها ، هروباً من الإغراءات المستمرة ، فقال: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [٥] ، واستعاذ بالله ثانية من أن يكون ظالماً ، حين راوده إخوته أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم الذي سرق ، فاستعاذ بالله قائلاً : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ ﴾

وقد أمر الله – سبحانه – نبيه بهذا النوع من الدعاء ، يرشده بان يستعيذ من أمور يقع منها الضرر على الناس ، فأمره بالمعوذتين ، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [٦]. وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [٨]

ثامناً : السؤال :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [٩].

والمعني أي " آتاه طلبته ومرغوبه ، والسؤال : الطلبة"

ومنه قول الله – تعالى - :﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [١٠]

إن المعنى المقصود بالسؤال في هذه الشواهد القرآنية ، هو ما كان من الدعاء بمعنى الطلب ، والذي أشار إليه ابن سيده[١١] "طلب الطالب للفعل من غيره"

---

[٤] سورة يوسف:الآية(٢٣) .

[٢] لسان العرب، ٤٩٨/٣.

[٣] تفسير القرآن العظيم:لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي(ت ٧٧٤هـ)،١١٤/١،تحقيق:سامي بن محمد سلامه،الناشر:دار طيبه للنشر والتوزيع ،ط(٢)،١٤٢٠هـ-١٩٩٩٩م .

[٤] بدائع الفوائد: لابن القيم ، ٢/ ٤٢٦.

[٢] سورة يوسف: الآية(٢٣)

[٥] سورة الناس: الآية(١)

[٦] سورة الأعراف : الآية(٢٠٠)

[٧] سورة المؤمنون: الآيتان(٩٧،٩٨)

[١] سورة طه: الآية(٣٦)

[٣] سورة الرحمن: الآية(٢٩)

[٤] الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسي؛ كان إماماً في اللغة والعربية حافظاً لهما وقد جمع في ذلك جموعاً، من ذلك كتاب " المحكم " في اللغة، وله كتاب " المخصص " في اللغة أيضاً وهو كبير، وكتاب " الأنيق " في شرح الحماسة ، وغير ذلك من المصنفات النافعة. وكان ضريراً، وأبوه ضريراً، وتوفي سنة،٤٥٨هـ،وعمره ستون سنة (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:لأبي العباس شمس الدين أحمد الإربلي(ت:٦٨١ هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت.

ونستدل على ذلك بقوله – تعالى - : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً ﴾ [١].
يقول الألوسي[٢] إنه " وقع جوابا لسؤال نشأ مما قبله"[٣].

ويوضح الشوكاني[٤] هذا الوعد المسئول بأنه "الوعد المحقق بأن يُسأل ويُطلب كما في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ ، وقيل : إن الملائكة تسأل لهم الجنة ، كقوله : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم ﴾[٥].

إذن المعنى المقصود بالدعاء بمعنى السؤال هو ما كان فيه معنى الطلب والذي أشار إليه ابن سيده ، وإذا أمعنا الفكر بهذا الطلب بالنسبة للدعاء فإنه لا يكون إلا لجلب المنفعة ، فالنسبة بينهما العموم والخصوص.

تاسعاً : الشفاعة :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [٦].
يقال " شفع لي يشفع شفاعة ، وتشفع : طلب ... واستشفعه طلب منه الشفاعة ، أي: قال له كن لي شافعاً"[٧].
وقد ورد لفظ الشفاعة في كتاب الله في مواضع عدة نذكر منها قوله – تعالى- : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ [٨].
ويقصد بالشفاعة الحسنة الدعاء للمسلمين ، والسيئة الدعاء عليهم[٩].
كما أكد أبو السعود من أنه يندرج في الشفاعة الدعاء للمسلم ، حيث إن الدعاء شفاعة إلى الله سبحانه
أما قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [١٠]
فقد أثبت الحق – سبحانه – في هذه الآية الكريمة أن الشفاعة لا تكون لأحد إلا بإذن الله ، فالشفاعة كلها له ، لكنه – سبحانه - إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده ، أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه ، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن[١١].

أما النسبة بين الشفاعة والدعاء فإن الذي يظهر أن الشفاعة دعاء مخصوص بطلب التجاوز عن الجرائم فالنسبة بينهما العموم والخصوص ، فكل شفاعة دعاء ، وليس كل دعاء شفاعة ؛ لأنها خاصة بطلب التجاوز والدعاء عام[١٢].

---

[٦] سورة الفرقان: من الآية(١٦)

[٧] محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. كان سلفي الاعتقاد، مجتهدا. تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨ هـ وعزل، فانقطع للعلم. ثم سافر (سنة ١٢٦٢ هـ إلى الموصل، فالآستانة ، وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته، فاستمر إلى أن توفي سنة ١٢٧٠هـ من كتبه (روح المعاني ، نشوة المدام في العود إلى دار السلام ،غرائب الاغتراب ، دقائق التفسير) . الأعلام : لخير الدين بن محمود بن محمد الزركلي (ت ١٣٩٦هـ) ٧/ ١٧٦، دار العلم للملايين ط (١٥) أيار -٢٠٠٢ م

[٣] روح المعاني: للألوسى ٢٤٦/١٨.

[١] محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان، باليمن) ونشأ بصنعاء. وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ ومات حاكما بها. وكان يرى تحريم التقليد. له ١١٤ مؤلفا، منها (نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار إتحاف الأكابر ،الدرر البهية في المسائل – الفقهية ،فتح القدير)،توفى سنة(١٢٥٠هـ). الأعلام : ٢٩٨/٦ .

[٥] فتح القدير للشوكاني ٧٦/٤ الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ

[٦] سورة البقرة : من الآية (٢٥٥).

[٧] لسان العرب ١٨٤/٨.

[٨] سورة النساء : من الآية (٨٥).

[٩] ينظر :الجامع لأحكام القرآن ٢٩٥/٥.

[١٠] سورة البقرة : من الآية (٢٥٥)

[١١] ينظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ١١٠ للسعدي ، عبد الرحمن بن ناصر (ت : ١٣٧٦هـ) : ، تحقيق : ابن عثيمين . ط (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م) . بيروت : مؤسسة الرسالة ،

[١٢] ينظر: الدعاء للعروسي ١/ ٩٦ .

عاشراً : الاستغاثة :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [١]

يقال : " أجاب الله دعاءه وغُواثه وغَواثه"[٢].

يقول الزبيدي : إن الاستغاثة "طلب الغوث وهو التخليص من الشدة والنقمة ، والعون على الفكاك من الشدائد"[٣].

والذي يبدو من أن الإغاثة طلب الغوث : أن هذا النوع من الدعاء يندرج تحت الطلب والسؤال ، فقد طلب نبي الله الغوث والنصر من الله – تعالى - ، ولجأ إليه فقال : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [٤]

يوضح الزمخشري معنى استغاثة النبي وأصحابه " أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله

أما عن النسبة بين الاستغاثة والدعاء فيوضحها ابن تيمية قائلاً : " إن المستغيث ينادي بالغوث ، والداعي ينادي بالمدعو والمغيث " [٥].

يفهم من كلام ابن تيمية أن الدعاء أعم من الاستغاثة ، وإنما يكون المستغيث في حال مخصوص ، وهو وقت الشدة والكرب ، أما الدعاء فيكون بالشدة والرخاء .

أحد عشر : الاستجارة :

ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنْ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ [٦].

الاستجارة من "جار واستجار ، طلب أن يجار ، أو سأله أن يجيره " [٧].

"وأجاره الله من العذاب ، أنقذه" [٨].

وقد ورد ذكر الاستجارة في قوله – تعالى -: ﴿ وإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾[٩]

ومن أجاره الله لم يوصل إليه ، وهو - سبحانه وتعالى - يجير ولا يجار عليه ، أي يعيذ ، وقال الله – تعالى - لنبيه : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنْ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ [١٠] والمعنى أنه لا أحد أستجير به ، ينقذني من عذاب الله[١١].

والذي يظهر مما سبق أن الاستجارة نوع من الدعاء خاص بدفع المكاره ودفع الضر، وبالتالي فإن النسبة بينهما وبين الدعاء العموم والخصوص .

---

[١] سورة الأنفال : الآية (٩)

[٢] مختار الصحاح ، ١/ ٢٠٢ .

[٣] تاج العروس ، ٣١٤/٥ .

[٤] سورة الأنفال :الآية (٩).

[٥] مجموع الفتاوى ، ١١١/١.

[٦] سورة الجن :الآية (٢٢)

[٧] تاج العروس ، ٤٨٦/١٠.

[٨] مختار الصحاح ، ٤٩/١ .

[٩] سورة التوبة : من الآية (٦) .

[١٠] سورة الجن : الآية(٢٢) .

[١١] ينظر: تيسير الكريم الرحمن ، ٨٩١/١ .

اثنا عشر : الجؤار:

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ (١)

فالجؤار من "جأر – يجأر جأرا، وجؤارا ، رفع صوته مع تضرع واستغاثة .. وجأر الرجل إلى الله -عز وجل إذا تضرع بالدعاء" (٢).

وقد ورد لفظ الجؤار بمعنى الدعاء في كتاب الله بشواهد قرآنية منها قوله – تعالى-: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ ، وقوله - تعالى -: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ قال ابن جُزي: أي "ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والتضرع"(٣).

والذي يظهر أن الجُؤار دعاء يصاحبه رفع صوت مع استغاثة ، وبالتالي يخرج منه الدعاء الخفي ، لينحصر الجُؤار بنوع خاص من الدعاء ، وهو ما يصاحبه رفع الصوت ، فالدعاء عام والجؤار خاص.

وبعد بيان معنى الدعاء في اللغة والاصطلاح وتتبع معانيه في السياق القرآني ، يتضح أن معانيَه تتعدد ، والذي يعنينا في هذه الدراسة ، ما ورد من أدعية للأنبياء بمعنى الرغبة إلى الله والابتهال واللجوء إليه ؛ لجلب الخير ودفع الضر ، وما كان بمعنى العبادة وبسمة العبودية لله .

---

(١) سورة المؤمنون : الآية (٦٤).

(٢) لسان العرب ١٢٢/٤ // وينظر: تاج العروس ، ٣٤٦/١٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ، ١٥٥/٢ .// وانظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١٢٠/٥ .

المبحث الثالث : أنـــواع الـــدعـــــاء

الدعاء من أجَلِّ العبادات وأعظم الطاعات ، لذلك أمر الله – تعالى - به عباده المؤمنين ، فهو يمثل العلاقة القوية بين العبد وربه ، فالمؤمن يحتاج دائماً إلى مناجاة ربه ، وهذه المناجاة تختلف من إنسان إلى آخر بحسب صلته بالله – عز وجل – لكن الأنبياء هم الذين علموا البشرية الكيفية التي تليق بدعاء الله – عز وجل – لأن دعاءهم يحتذى به في جوانب الحياة المختلفة ، ولقد اختلفت آراء العلماء حول تحديد أنواع الدعاء عند الأنبياء.

وسأتناول هذه الآراء مع بيان الراجح منها وذلك كما يلي :

أولاً : آراء العلماء في أنواع الدعاء:

لقد اختلفت آراء العلماء حول أنواع الدعاء ، نظراً لاختلافهم في فهم الآيات الواردة في كتاب الله – عز وجل- وسأتناول هذه الآراء على النحو التالي :

أولاً : رأي الإمام الزجاج :

قسم الزجاج الدعاء إلى ثلاثة أقسام:

١- دعاء التوحيد والثناء على الله - سبحانه .

٢- دعاء أمر أخروي .

٣- دعاء أمر دنيوي .

هذا التقسيم ذكره الزجاج في قوله " ومعنى الدعاء لله - عز وجل - على ثلاثة أضرب. فضرب منها توحيده والثناءُ عليه كقولك : يا الله لا إله إلا أنت ، وقولك : ربنا لك الحمد ، فقد دعوته بقولك ربنا ثم أثنيت بالثناء والتوحيد ومثله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي يستكبرون عن توحيدي والثناء عليّ فهذا ضرب من الدعاء .

وضرب ثانٍ : هو مسألة الله العفو والرحمة ، وما يقرب منه كقولك: يا الله اغفر لنا.

وضرب ثالث : هو مسألته من الدنيا كقولك : اللهم ارزقني مالاً وولداً وما أشبه ذلك . وإنما سمي هذا أجمع دعاء لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياء بقوله: يا الله ، ويا رب ، ويا حى فكذلك سمى دعاءً

ثانياً : رأي الإمام الرازي[1]:

ذكر الرازي وجوهاً للدعاء من خلال تفسيره لهذه الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2] حيث قال " لفظ الدعاء يحتمل وجوها

أحدها : الدعاء عبارة عن التوحيد والثناء على الله .

وثانيهاً : التوبة عن الذنوب ، وذلك لأن التائب يدعو الله – تعالى - عند توبته .

وثالثها : أن المراد من الدعاء العبادة ، قال - عليه الصلاة والسلام -: " الدعاء هو العبادة"

ورابعها : أن يفسد الدعاء بطلب العبد من ربه حوائجه.

---

[1] محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكريّ أبو عبدالله فخر الدين الرازي : الإمام المفسر وهو قرشي النسب ، أصله من طبرستان ومولده في الري سنة ٥٤٤هـ من تصانيف (مفاتيح الغيب) توفي في هراة سنة ٦٠٦هـ// الأعلام لخير الدين بن محمود بن حمد بن على بن فارس الزركلي (ت ١٣٩٦هـ) ٣١٣/٦ ، الناشر دار العلم للملايين ، الطبعة : الخامسة عشر أيار / مايو ٢٠٠٢.

[2] سورة البقرة آية ١٨٦.

ثالثاً : رأي ابن تيمية:

قسم شيخ الإسلام ابن تيمية الدعاء إلى نوعين هما

١- دعاء العبادة .

٢- دعاء المسألة .

حيث ذكر هذا التقسيم في قوله: " لفظ الدعاء والدعوة في القرآن الكريم ، يتناول معنيين : دعاء العبادة ، ودعاء المسألة[١]، ثم ساق ابن تيمية الشواهد القرآنية على ذلك منها قوله – تعالى- : ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾[٣]

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ﴾[٤] أي " ما يعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه وتسألونه"[٥]

كما استدل بما جاء في الصحيحين عن النبي – صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " ينزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول من يدعوني فاستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له"[٦].

وقد أشار إلى وجه الدلالة في الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم - " ذكر لفظ الدعاء ، ثم ذكر السؤال والاستغفار ، فالمستغفر سائل ، كما أن السائل داع ، لكن ذكر السائل لدفع الشر ، بعد السائل الطالب للخير ، وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي تناولهما " [٧].

رابعاً : رأي ابن القيم.

ذكر ابن القيم - رحمه الله - أن دعاء الله بأسمائه الحسني يتناول :

١- دعاء المسألة .

٢- دعاء الثناء .

٣- دعاء التعبد.

وقد استدل رحمه الله على هذا التقسيم من خلال هذه الآية الكريمة ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [٨] حيث قال " الدعاء بها يتناول دعاء المسألة ، ودعاء الثناء ودعاء التعبد ، فهو – سبحانه- يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها"[٩] فالمراد بدعاء المسألة هو "طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه"[١٠].

---

[١] مجموع الفتاوى : لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني ٢٣٧/١٠ – ٢٣٨ ، تحقيق : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ، الناشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، عام النشر ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

[٢] سورة الشعراء آية (٢١٣).

[٣] سورة الرعد من الآية (١٤).

[٤] سورة الفرقان من الآية (٧٧).

[٥] مجموع الفتاوي : لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ٢٣٨/١٠- ٢٤٠.

[٦] الجامع الصحيح : محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري ، باب الدعاء نصف الليل ٧١/٨ رقم ٦٣٢١ ، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر : دار طوق النجاة ، الطبعة : الأولي ١٤٢٢هـ// صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري [ت ٢٦١هـ] باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ١/ ٥٢١ رقم ٧٥٨ تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار : إحياء التراث العربي – بيروت .

[٧] مجموع الفتاوى : لابن تيمية ٢٣٩/١٠.

[٨] سورة الأعراف من الآية (١٨٠).

[٩] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) ١/ ٤٢٠-٤٢١ . تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي ، الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت . الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

[١٠] بدائع الفوائد : لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ٢/٣ ، الناشر – دار الكتاب العربي - بيروت ، لبنان .

والمراد بدعاء الثناء هو " ذكر أسماء الرب - تبارك وتعالى - وصفاته والثناء عليه بهما وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به - تبارك وتعالى - إما إنشاء وإما إخباراً"[١].

والمراد بدعاء التعبد هو : "طلب الثواب بالأعمال الصالحة : كالنطق بالشهادتين ، والعمل بمقتضاهما ، والصلاة والصيام والزكاة والحج ، والذبح لله والنذر له"[٢].

تلك هي آراء العلماء في بيان أنواع الدعاء .

لكن يتضح أن التقسيم الذي ذكره الزجاج يرجع إلى نوعين فقط وذلك لأن الضرب الثاني والثالث كلاهما سؤال الله – تعالى - والطلب منه إلا أن أحدهما يتعلق بحظ من حظوظ الدنيا ، والآخر يتعلق بالآخرة ، وهذا التعلق لا يخرجهما عن كونهما نوعاً واحداً ، ويدل على هذا أن ابن سيده عبر عن هذا النوع بقوله " الطلب لأجل الغفران أو عاجل الإنعام"[٣].

ومن هنا يتضح أن تقسيم الزجاج يرجع في الحقيقة إلى نوعين رئيسين هما : دعاء التوحيد والثناء على الله ، ودعاء المسألة .

وعند إمعان النظر في تقسيم الرازي نجد أن تقسيمه للدعاء ليس على وجه الدقة وذلك لأن الوجه الأول دعاء التوحيد والثناء هو نفسه الوجه الثالث دعاء العبادة فهما مسميان لمعنى واحد ؛ وذلك لأن دعاء التعبد يشمل سائر أنواع العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وأما الوجه الثاني التوبة عن الذنوب ، والوجه الرابع طلب العبد من ربه حوائجه ، يمثلان دعاء المسألة غير أن التوبة عن الذنوب هي دعاء مسألة لأمر أخروي ، وطلب الحوائج دعاء مسألة يختص بأمور الدنيا ، فهما يعدان نوعاً واحداً وهو دعاء المسألة.

ومن هنا يتضح أن تقسيم الرازي يستقر في النهاية على نوعين رئيسين هما : دعاء العبادة ، ودعاء المسألة.

أما التقسيم الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية فهو يتميز بالدقة والشمول ، وذلك لأن الناظر في آيات الذكر الحكيم يجد أن الدعاء يأتي تارة ويراد به العبادة ، وتارة يراد به المسألة ، وتارة يراد به مجموعهما .

وعند النظر في تقسيم الإمام ابن القيم نجد أن تقسيمه مثل تقسيم الإمام الزجاج يرجع في الحقيقة إلى نوعين فقط وهما : دعاء المسألة ودعاء التعبد ، وذلك لأن دعاء الثناء هو ذاته دعاء التعبد فهما يعدان نوعاً واحداً ، وليسا نوعين " وذلك لأن دعاء التعبد يشمل دعاء الثناء ، ويؤكد هذه الحقيقة ابن القيم نفسه ، حيث ذكر في الآية التي استدل بها على هذا التقسيم الثلاثي ، وهي قوله - تعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[٤] ذكر فيها أيضاً في موضع آخر[٥] أن الدعاء فيها مرتبتان " إحداهما : دعاء ثناء وعبادة والثانية : دعاء طلب ومسألة " فجعل دعاء الثناء والعبادة نوعاً واحداً ، كما أنه ذكر في كتابه(جلاء الأفهام) أن الدعاء نوعان في قوله " والدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة ، والعابد داعٍ كما أن السائل داعٍ"[٦].

---

[١] الوابل الصيب من الكلم الطيب : ابن قيم الجوزية ١/ ٨٧-٨٨ ، تحقيق سيد إبراهيم ، الناشر : دار الحديث – القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٩م.

[٢] شروط الدعاء وموانع الإجابة في ضوء الكتاب والسنة: سعيد بن على بن وهف القحطاني ٧/١ ، الناضر : مطبعة : سفير الرياض .

[٣] المخصص : لأبي الحسن على بن إسماعيل بن سيده المرسي [٤٥٨] ٥٧/٤ تحقيق : خليل إبراهيم جفال ، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الأولي ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

[٤] سورة الأعراف من الآية ١٨٠ .

[٥] بدائع الفوائد : لابن القيم ١٦٤/١.

[٦] جلاء الأفهام : لابن القيم ١٥٥/١ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط عبدالقادر الأرناؤوط : الناشر : دار العروبة – الكويت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م .

كما أنه ذكر في موضع آخر " أن الدعاء نوعان : دعاء ثناء ، ودعاء مسألة"[١] وقوله في بدائع الفوائد في تفسير الآيتين ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢] قال - رحمه الله- :" هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء ، دعاء العبادة ودعاء المسألة"[٣].

كما أنه ذكر في البدائع أيضاً أن " التشهد يجمع نوعي الدعاء دعاء الثناء والخير، ودعاء الطلب والمسألة"[٤] ومن هنا يستخلص أن تقسيم ابن القيم لأنواع الدعاء يرجع في الحقيقة إلى نوعين اثنين هما : دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ، وهذا التقسيم هو ما استقر عليه ابن القيم فيما بعد موافقاً فيه شيخه ابن تيمية.

ثانياً : الترجيح بين آراء العلماء :

وبعد هذا العرض والتفصيل لآراء العلماء في بيان أنواع الدعاء يتبين أن التقسيم الجامع هو ما كان على ضربين اثنين وهما : دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ، وذلك لأن الدعاء هو قصد المدعو والتوجه إليه ، وهذا القصد والتوجه إلى المدعو يكون " تارة لذاته ، وتارة لمسألته أمراً منه ، وهذا كالشخص يدعو غيره ، ويطلبه ، ويقصده ، تارة لذاته ، وتارة لأمر يطلبه منه " [٥].

ومن خلال ما سبق يتبين أن التقسيم المختار هو ما كان على ضربين اثنين وهما : دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ؛ وذلك لعدة أمور :

أولاً : أنه أشمل وأعم حيث يدخل فيه جميع أنواع الدعاء .

ثانياً : سلامته من الاعتراضات التي في التقسيمات الأخرى .

ثالثاً : قوة أدلته وحسن دلالته .

رابعاً : أن هذا التقسيم عليه جمع من العلماء منهم الطبري وابن سيده وابن تيمية ، وابن القيم وصاحب (فتح المجيد) وغيرهم .

---

[١] زاد المعاد : لابن القيم ١/ ٢٢٧ ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، الطبعة : السابعة والعشرون ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .

[٢] سورة الأعراف الآيات ٥٥- ٥٦.

[٣] بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٣.

[٤] السابق ١٩٠/٢ .

[٥] بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية : لابن تيمية ٥٣١/٤ ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، الناشر : مجمع الملك فهد الطبعة الأولى : ١٤٢٦هـ

المبحث الرابع : شيوع الدعاء في القرآن الكريم

توطئة:

بيّن لنا القرآن الكريم بأسلوبه الفريد ، تأصيل العلاقة بين الحق والخلق ، كي يكون منهجاً ربانياً وفق إرادته – سبحانه- منطلقاً من فطرة الناس التي فطر الناس عليها ، وشعورهم الدائم بالحاجة إليه ، فالناظر في كتاب الله – عز وجل – يدرك اهتمام الحق بهذه العبادة ، فقد افتتح القرآن بالدعاء والثناء في فاتحة الكتاب ، واختتم أيضاً بالدعاء في سورة الناس ، وما ذلك إلا لأهميته ، ولضرورة أخذه منهج حياة ، فإنّ فيه حقيقة الافتقار إلى الله ودوام الحاجة إليه مع أن الله – تعالى ذكرهُ – غني عن دعوات العباد ، فيقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[١].

ومع ذلك فإن الله – تعالى - ، يحب دعاء الداعين ، ويفرح بتوبتهم ، لأن في الدعاء تأصيلاً للعلاقة بين العبد وخالقه ، هذه العلاقة القائمة على حسن الظن بالخالق فإنّ "الدعاء أهم مقامات العبودية"[٢] وإنه "من مقتضى العبودية الخالصة ، أن يحسن العبد ظنه بالخالق العظيم، وأنه يحب دعاءه إذا دعاه"[٣] لذلك أرشدنا الله – سبحانه – إلى أنه منا قريب ، وأمرنا أن نتوجه إليه مباشرة دونما وساطة ، وحينما نريد ، فقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ..... ﴾[٤]

وسيدور هذا المبحث حول ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : حث القرآن على الدعاء وترغيبه فيه :

أول ما تجدر الإشارة إليه في بيان معالم الدعاء الحث عليه فقد جاء تبياناً لمكانة الدعاء وتشرفاً إلهياً للداعين في آنٍ واحد فقال – تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [٥] فالله – تعالى - وعد من دعاه أن يجيب دعاءه ويحقق رجاءه ويعطيه سُؤله ... وهذا " من فضله تبارك وتعالى وكرمه : أنه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة " [٦].

ومن الآيات التي أوردها القرآن الكريم في الحث على الدعاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [٧] فإني قريب: تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجاحه حاجة من سأله بحال من قرب مكانه ، فإذا دعي أسرعت تلبيته[٨] وهنا تُلحظ حكمة جليلة تضمنتها هذه الآية ، تلك أن سنّة القرآن جرت حيث ورد لفظ السؤال جاء عقبه لفظ (قُلْ)، إلا في هذا الموضع ، فقد جاء بلفظ "فإني قريب" مباشرة ، لتوحي بالقرب والعناية ورفع الوساطة بين الداعي وربه .

---

[١] سورة فاطر الآية : (١٥) .

[٢] مفاتيح الغيب : الرازي ٢٦٣/٥.

[٣] المختار في المواعظ والأحكام والأخبار : قاسم بن محمد الشماعي الرفاعي ، ٤٨١ ، الناشر : بيروت المكتب الإسلامي ، الطبعة : الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

[٤] سورة البقرة من الآية (١٨٦) .

[٥] سورة غافر الآية : (٦٠).

[٦] تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي [ت ٧٧٤هـ] ١٥٣/٧ تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م .

[٧] سورة البقرة الآية (١٨٦) .

[٨] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزمخشري [ت ٥٣٨هـ] ٢٢٨/١ الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة : الثالثة ١٤٠٧ هـ .

ومن شواهد السؤال وإجابته بلفظ (قل) في القرآن الكريم ما يلي:
قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾[1].
وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُول ﴾[2]
وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[3]
وغير ذلك من الأسئلة التي جاءت الإجابة عليها بلفظ (قل) وفي صورة واحدة فقط جاء الجواب دون هذا اللفظ وهو : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل : " فقل إني قريب".

وقد ذكر العلماء أن سبب هذا الحذف لكلمة "قل" إنما هو الدلالة على تعظيم حال الدعاء ، وذلك من وجوه: [4]

أولها : كأنه – سبحانه وتعالى – يقول : عبدي أنت إنما تحتاج إلى الواسطة في غير وقت الدعاء ، أما في مقام الدعاء ، فلا واسطة بيني وبينك .

ثانيها : إضافة العبد بياء التشريف : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ يدل على أن الربّ للعبد.

ثالثها : لم يقل العبد منى قريب ، بل أنا منه قريب .

رابعها : الداعي إذا كان خاطره مشغولاً بغير الله فإنه لا يكون داعياً ، أما إذا أخلص الدعاء واستغرق في معرفة الله ، امتنع أن يبقى بينه وبين الأحد واسطة ، فلا جرم حصل القرب ، وبذلك فالدعاء يفيد القرب من الله فكان الدعاء أفضل العبادات ، والقرب كما فسره الرازي [5] بمعنى " أن الله – تعالى - يسمع دعاءهم ويرى تضرعهم ، أو هو العلم والحفظ ومن هذا الوجه قال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾[6].

وأيضاً من الآيات التي أوردها القرآن الكريم في الحث على الدعاء قوله تعالى ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[7] وكمَا كان موصوفاً بصفات الجلال والعظمة أمر العباد بشيئين أحدهما : الدعاء والثاني : الإخلاص فيه ، فقال : ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[8] وفي الحث على الدعاء في هذه الآية تصريح وتأكيد على التوحيد ونبذ وتسفيه كل عقيدة باطلة ، لأن جوهر الدعاء يمثّل حقيقة التوحيد ، وهذا ما أكده القرآن الكريم في وصفه للإنسان الذي مسه الضّرّ ، فلا يجد سبيلاً غير الله قادراً على كشف ضرّه ، فيعترف بكل خضوع وذلةٍ بالضعف ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً . ﴾[9]

ففي هذه الآية " ما يدل على غاية ضعفه ونهاية عجزه"وينبئك بيان الحالات الثلاث " الاضطجاع والقعود والقيام " للإنسان الداعي مدى الاجتهاد في الدعاء والتضرع إليه – تعالى - لكي يكشف الضّرّ عنه ، كما تؤكد هذه الحالات الثلاث على شدة لجوء الإنسان إلى خالقه الحق في ضره.

وإلى جانب هذه الشواهد التي ذكرناها في الحث على الدعاء قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[10] وهنا يأتي الحث مصاحباً التعليم الإلهي ، فهذا خطاب من الله - تبارك وتعالى – لعباده كي يعلمهم الكيفية التي تليق بذكره - سبحانه وتعالى- والحسنى: تأنيثُ الأحسن أي الأسماء التي هي أحسنُ الأسماء وأجلُّها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

---

[1] سورة البقرة من الآية : (٢١٩) .
[2] سورة الأنفال من الآية : (١) .
[3] سورة الإسراء من الآية : (٨٥) .
[4] مفاتيح الغيب : الرازي ٢٦٤/٥.
[5] السابق: ٢٦٢/٥.
[6] سورة الحديد من الآية : (٤) .
[7] سورة غافر الآية : (٦٥) .
[8] مفاتيح الغيب : ٢٧/ ٥٣٠ .
[9] سورة يونس من الآية : ١٢ .
[10] سورة الأعراف من الآية : (١٨٠) .

وقوله ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ أي " اطلبوا منه بأسمائه ، فيطلب بكل اسم ما يليق به ، تقول يا رحيم ارحمني يا حكيم احكم لي ، يا رازق ارزقني ، يا هادى اهْدِني ، يا فتاح افتح لي ، يا تواب تب على ، وهكذا[1] فالآية تتضمن حكماً وهو " أنه يجب على الإنسان أن يدعو الله بها ، ولا يدعوه إلا بتلك الأسماء الحسنى" [2] فالآية تقرر أن هذه الأسماء الحسنى لله وحده وتأمر عباده المؤمنين أن يدعوه بها وحده ، دون تحريف ولا ميل.

ومن هذا العرض الموجز لشواهد الحث على الدعاء يتبين ما يلي :

١- أن في الحث نداءً إلهياً يدعو لسدّ ضعف الإنسان وفقره من خلال تعلقه بخالقه الغني ولجوئه لفيض كرمه وإحسانه وتحصنه بحصنه المنيع .

٢- أن في الدعاء منهجاً لتعليم الإنسان وتأديبه في كيفية إقباله على بارئه ومخاطبته .

٣- أن خير الدعاء ما كان بأسمائه الحسني وصفاته العلى وذلك لأن الخالق - جلا جلاله- هو الأعلم بما يصلح لنا ، ومن هنا كان الدعاء بأسمائه الحسني هو خير دعاء نتجه به إلى الله – تعالى - لأنه من الله وإليه .

ومن أجمل ما يألفه المتتبع لآيات الدعاء في القرآن الكريم هو استجابته ، فالناظر في دعاء الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه قد استجاب دعاءهم ، كيف لا وهذا وعدٌ من الله في قوله ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [3] فالله – تعالى - " وعد من دعاه أن يجيب دعاءه ويحقق رجاءه ويعطيه سُؤله"[4]

وليس هناك أبين من هذه الدلالة على إجابة الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث في قوله – تعالى - ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[5] وذلك للإشارة إلى تجدد الاستجابة وحدوثها فاستجابة الدعاء نعمة وتفضل ووعد لأمه محمد – صلى الله عليه وسلم - بالإجابة عند الدعاء .

ولقد ساق القرآن الكريم نماذج كثيرة متنوعة للأخيار من عباده ، الذين رفعوا أكف الضراعة إليه - سبحانه - فاستجاب لهم لأنهم أخلصوا له القول والعمل .

ومن هذه النماذج ما يلي :

١- نوح - عليه السلام- يطلب من ربه النصر والنجاة من القوم الظالمين ، فاستجاب الله دعاءه ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[6].

٢- وأبو الأنبياء إبراهيم -عليه السلام- يتوجه إلى الله بخشوعٍ وتضرع أن يرزقه الذرية الصالحة قائلاً ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾فاستجاب الله لندائه ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾[7] رزقه الله إسماعيل -عليه السلام – ثم رزقه بإسحاق ويعقوب -عليهما السلام- ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾[8].

٣- وهذا موسى وأخوه – عليهما السلام – استجاب الله لهما عندما سألاه النجاة ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾[9].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن : تفسير القرطبي : لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزاجي شمس الدين القرطبي [ت ٦٧١هـ] ٣٢٧/٧ ، تحقيق : أحمد الردونى وإبراهيم أطفيش ، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة : الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

[2] مفاتيح الغيب : ٤١٥/١٥ – ٤١٦ .

[3] سورة غافر من الآية : (٦٠) .

[4] فقه الأدعية والأذكار : عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر ، ٢٦/٢ ، الناشر الكويت الطبعة : الثانية ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

[5] سورة البقرة من الآية : (١٨٦) .

[6] سورة الأنبياء الآيتان: (٧٦، ٧٧).

[7] سورة الصافات الآية : (١٠١).

[8] سورة هود الآية : (٧١) .

[9] سورة الصافات الآية : (١١٥) .

٤- وهذا يوسف – عليه السلام – يسأل ربه أن يصرف عنه كيد النساء ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[١].

٥- وكذلك نبي الله أيوب ينادى ربه أن يكشف عنه الضر فاستجاب الله لندائه ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾[٢].

هذا ولم تتوقف الإجابة على الأنبياء فحسب ، ولكن عندما لبّى الصالحون تكليف خالقهم ، ما كان الله ليخلف وعده ، فقد استجاب الله دعاءهم ، وها هو القرآن الكريم يسوق لنا نماذج من الدعوات الطيبات التي تضرع بها الصالحون ، فنالت من الله – تعالى- القبول والاستجابة ، وهذا نموذج من تلك الدعوات ، التي حكاها القرآن على ألسنة القانتين ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[٣] فهذا وعد الله يتحقق لهؤلاء الذين استجابوا لندائه – سبحانه- في قوله ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾[٤] فاستجاب الله دعاءهم ولم يخيب رجاءهم فقال – سبحانه- ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾[٥] وهنا تتجلى سعة رحمة الله -عز وجل- بخلقه ، حيث إن الاستجابة لم تتوقف على الأنبياء والصالحين فحسب ، بل يمتد أثرها إلى أشر الخلق ، فهذا إبليس الملعون الذي أعلن عداوته للإنسانية جميعاً ، قد دعا فقال:

﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٦] فأجابه الله بقوله ﴿ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنظَرِينَ ﴾[٧] فليس بعد ذلك دلالة على سعة رحمة الله – تعالى- في إجابة خلقه وعباده إذ من جاهر الله – سبحانه- بالعصيان والكفر أجيب طلبه ، فكيف لا يجاب من عرفه ورجا رحمته ومغفرته ؟

فاستجابة الله للدعاء تعلن هذه القواعد الثابتة وهي :

١- إجابة دعوة الداعين تتضمن صفة السمع وغيرها من الصفات كالعلم والقدرة ، فالله وحده قادر على كشف الضر وجلب النفع.

٢- في الإجابة إعظامٌ للدعاء ومكانته وإكرامٌ للداعي وشأنه ، وتنبيه على أن الدعاء من مستلزمات العبودية ، وأن الإجابة من صفات الألوهية .

٣- أن إجابة الدعاء كانت تجسيداً وإثباتاً للألوهية والتي جاء بها جميع رسل الله ، لترسيخ مبدأ تفرد الله بالعبادة .

وسيأتي - إن شاء الله- دعاء الأنبياء المستجاب بالتفصيل في الفصل الثاني .

المطلب الثاني : تعدد صور الدعاء في القرآن :

شغل الدعاء مكاناً كبيراً ومهماً من كتاب الله العزيز ولعلك تلحظ تناثر الدعاء من أول سورة فيه مروراً بطوال السور وقصارها ، حتى إذا انتهينا عند آخر سور الكتاب المجيد وجدناها دعاءً كريماً يجسد صورة معبرة لاعتراف الإنسان بضعفه ولجوئه إلى خالقه وتعلقه بحصنه من كل ما دار بفكر أو جال بخاطر من أمر عظيم .

---

[١] سورة يوسف الآية : (٣٤) .

[٢] سورة الأنبياء من الآية : (٨٤) .

[٣] سورة آل عمران من الآية : (١٩٠ – ١٩٤).

[٤] سورة البقرة من الآية : (١٨٦) .

[٥] سورة آل عمران من الآية : (١٩٥) .

[٦] سورة ص من الآية : (٧٩).

[٧] سورة ص من الآية : (٨٠).

والناظر المستقرئ لظاهرة الدعاء في القرآن الكريم يأنس تعدد صورها واختلاف أساليبها فيأتي بالصور الآتية :

١- صيغة الأمر أو النهى كما في قول الله – تعالى- ﴿ رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[١]

٢- وقد يكون الطلب بصيغة النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ [٢] أي اغفر لنا يا ربنا .

٣- وقد يكون بأسلوب الاستفهام ، كقوله تعالى على لسان موسى -عليه السلام -: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾[٣] أي : لا تهلكنا .

٤- وقد يكون الدعاء بأسلوب خبري ، كمن يعرض حاله على ربه راجياً سؤاله ، كقوله تعالى على لسان موسى -عليه السلام-:﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[٤] فكأنه يقول : رب إنني فقير ومحتاج دائماً إلى الخير الذي تنزله عليَّ ، فلا تقطعه عني .

٥- وقد يكون الدعاء نداء يجأر به الداعي إلى ربه ، أو مناجاة يبث فيها إلى الله شكواه كقول الله – تعالى- في شأن أيوب - عليه السلام- : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٥] .[٦].

وهنا يتبين أن تعدّد صور الدعاء واختلاف أسلوبه يعد من الخصائص البارزة التي يتميز بها .

المطلب الثالث : مستويات الدعاء في القرآن :

وإذا تابعنا السير في ظل هذه الظاهرة الكريمة نرى أنها تقرر حقيقة الافتقار إلى الحق – سبحانه- ، فالعبد محتاج إلى ربه في كل شئونه ومفتقرٌ إليه في جميع أحواله وهذا "أمرٌ فطريٌ ضروريٌ عقلي ، يجده كل داعٍ في قلبه ، فالقلب عند التوجه والسؤال والدعاء والابتهال والمناجاة له وجهة واحدة يقصدها ويتجه إليها هي إلى الله -عز وجل " [٧] وهذا ما نراه في حال الداعين ، حيث نرى الأنبياء والملائكة، والمؤمن والكافر ، والصالح والطالح، والصحيح والسقيم ، والغني والفقير ، الكل يتجه إلى الله – سبحانه- ويرفع أكف الضراعة إليه وحده .

هذا ولو استعرضنا هذه المستويات وتنوعها لطال المقام ، ولكن هذا بيان موجز لبعض المستويات وبيان حالها وهي كما يلي :

١- الأنبياء:

يعرض علينا القرآن الكريم أدعية أنبياء الله ورسله على امتداد تاريخهم الطويل ومن خلال مواقفهم في موكب الدعوة الموصول ، لنقتدي بهديهم ، ولنتمثل مواقفهم ، فنتبين متى وكيف ندعو الله ، فالأنبياء كانوا يجأرون إلى الله بخالص الدعاء ، راجين منه العون ، إما الذرية الصالحة ، أو النصر على أعدائه ، أو الشكر على نعمائه .

فهذا نوحٌ – عليه السلام- يضرع إلى الله أن ينصره على قومه ، بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الدين الحق ولكنهم كذبوه وأذوه ، فسأل ربه العون والنصر على هؤلاء القوم ، ويحكى لنا القرآن الكريم ذلك على لسان نوح – عليه السلام- في قوله – تعالى - ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾[٨]

وهذا موسى – عليه السلام- يطلب المزيد من الرزق والبركة ويتوجه إلى ربه بدعائه هذا ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[٩]

---

[١] سورة البقرة الآية : ٢٨٦.
[٢] سورة البقرة من الآية : ٢٨٥ .
[٣] سورة الأعراف من الآية : ١٥٥.
[٤] سورة القصص : ٢٤ .
[٥] سورة الأنبياء الآية : ٨٣ .
[٦] دعاء الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم : عطية محمد شعبان ، ١١، الناشر : دار التقوى ، الطبعة : الثانية ، ٢٠٠٥م
[٧] فقه الأدعية والأذكار : عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر ، ١٨٩/٢.
[٨] سورة القمر الآية : (١٠) .
[٩] سورة القصص من الآية : (٢٤) .

وهذا يوسف – عليه السلام- يشكو حاله إلى ربه ، ويسأله أن يصرف عنه السوء قائلاً ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾[١] ثم يفوض أمره كله لله وهذا من كمال الأدب مع الله قائلاً ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾[٢].

وهذا سليمان – عليه السلام- يسأل ربه المغفرة والملك كما حكى القرآن الكريم عنه ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾

وهذا من جعل للصبر راية أيوب – عليه السلام – حيث يصدر دعاءه بكل أدب ولطف ، فيسأل ربه كشف الضر عنه ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[٣].

وهذا لوط – عليه السلام- يلجأ إلى ربه ويسأله النجاة من هؤلاء المعتدين ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[٤].

وهذا رسولنا محمدٌ – صلى الله عليه وسلم - يعلمنا بم ندعو الله -عز وجل- قائلاً ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[٥].

٢- الملائكة :

وهؤلاء هم الملائكة المقربون يقدمون أروع الأمثلة في تعليم العباد أدب السؤال والدعاء مع الله ، فهم يبدأون دعاءهم بالثناء الجميل على الله –سبحانه- وذلك بوصفه بالرحمة والعلم ، ثم يطلبون من الله المغفرة للمؤمنين قائلين: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾[٦]. ثم يسألون ربهم أن يجمع بين هؤلاء المؤمنين وبين من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم في الجنة ، وذلك ليقر أعينهم ، آملين القبول بوصفه –سبحانه- العزيز الذي لا يغلب والحكيم في أقواله وأفعاله قائلين ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ثم يرتقى دعاءهم إلى هذه الدرجة الرفيعة يطلبون من الله أن يحفظهم من فعل المنكرات والفواحش التي توبق صاحبها قائلين ﴿ وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾وذلك لأن من حفظه الله من المنكرات وعواقبها يوم القيامة فقد لطف به ورحمه رحمة واسعة وذلك هو الفوز العظيم .

٣- الراسخون في العلم :

أما الراسخون في العلم فهم الذين يقولون إن كلا من المحكم والمتشابه من عند الله، والمحكم نعمل به ، والمتشابه نؤمن به ، فهذه هي الهداية إلى الحق ، لذلك يدعون ربهم أن يهب لهم من عنده رحمة يثبت بها قلوبهم ، ويزيد بها إيمانهم قائلين ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾

ثم ينتقل دعاؤهم من طلب الهداية إلى الإقرار باليوم الآخر والإحساس بالمسئولية الكبرى قائلين ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ . ولعل الرابط بين هذا الدعاء والأول أن "الراسخ في العلم ما دام قد علم شيئاً فهو يريد أن يشيعه في الناس ، لذلك يقول لنا إياكم أن تظنوا أن المسألة مسألة فهم لنص وتنتهي ، إن المسألة يترتب عليها أمر آخر ، هذا الأمر الآخر لا يوجد في الدنيا فقط ، ولكن هناك الآخرة التي تأتي بعد الدنيا حيث الخلود"

---

[١] سورة يوسف من الآية : (٣٣).

[٢] سورة يوسف من الآية : (٣٣).

[٣] سورة الأنبياء الآية : (٨٣) .

[٤] سورة الشعراء الآية : (١٦٩).

[٥] سورة طه من الآية : (١١٤) .

[٦] سورة غافر الآية : (٧) .

٤- المؤمنون:

وهاهم أهل الإيمان يقفون خاضعين خاشعين أمام الواحد القهار ، يسألونه الهداية إلى الطريق المستقيم وهذا في كل صلاة قائلين ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[1].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الدعاء ، أن أول دعاءٍ في القرآن الكريم جاء على لسان المؤمنين ، وأن هذا الدعاء من أعظم ما يسأل العبد ربه ، حيث إن الهداية إلى الصراط المستقيم هي طريق السعادة في الدنيا والآخرة ، والصراط المستقيم هو "الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه"[2] فالصراط المستقيم هو الطريق الذي سلكه الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ، مصداقاً لقول الحق - تبارك وتعالى- ﴿ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً ﴾[3].

٥- الكافرون :

أما الكافرون الذين خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك بسبب كفرهم وعنادهم ، فعندما أخبر الله -عز وجل- عن عذابهم في النار في قوله -تعالى- ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[4].

قاموا يدعون الله أن يمكنهم من رؤية هؤلاء المكذبين الضالين من شياطين الإنس والجن قائلين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنْ الأَسْفَلِينَ ﴾[5].

وطلبهم الرؤية لهؤلاء الضالين ، ليكونوا أشد عذاباً منهم في الدرك الأسفل من النار ، ولهذا قالوا : ﴿ لِيَكُونَا مِنْ الأَسْفَلِينَ ﴾.

٦- أهل الجنة :

وهاهم السعداء يقرون ويعترفون بفضل الله ونعمه عليهم ، وذلك عندما عاينوا الثواب الوافر، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم ، والملك الكبير في الجنة قائلين :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [6]. وهذا الوعد هو ما ذكره ربنا -سبحانه- على لسان رسله الكرام من الثواب العظيم الذي أعده الله لعباده المؤمنين في الآخرة ، حيث دعوا به في الدنيا قائلين ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[7].

فهم يتقلبون من نعيم إلى نعيم، ومن سعادة إلى سعادة ، ولهذا قالوا ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾[8].

---

[1] سورة الفاتحة الآية : (٦) .

[2] تفسير القرآن العظيم : ١/ ١٣٧.

[3] سورة النساء الآية : (٦٩).

[4] سورة فصلت الآية : (٢٧) .

[5] سورة فصلت الآية : (٢٩) .

[6] سورة الزمر الآية : (٧٤).

[7] سورة آل عمران الآية : (١٩٤) .

[8] سورة الزمر من الآية : (٧٤) .

٧- أهل النار:

وهاهم أهل النار يصطرخون فيها قائلين ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾[١] فهم يسألون الله رب العالمين الخروج من النار ، والرجوع إلى الدنيا مرة ثانية ، حتى لا يعودوا إلى المعاصي والذنوب التي أهلكوا بها ، ولكن يأتي الجواب مؤلماً من الله تعالى على هؤلاء الكافرين الظالمين قائلاً ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾[٢] ولما كان الجواب شديداً عليهم ، وعلموا أنهم ماكثون فيها ، طلبوا أن يخفف عنهم العذاب ولو يوماً واحداً قائلين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنْ الْعَذَابِ﴾[٣] ولكن هيهات هيهات لما يسألون ثم يخبر ربنا عن سبب دخولهم النار ، وعدم تخفيف العذاب عنهم قائلاً ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾[٤] .

وبعد ما بين الله – عز وجل – سبب هلاك هؤلاء ، أخبرنا ربنا- تبارك وتعالى- عن سبب سعادة هؤلاء المؤمنين قائلاً: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾[٥] نعم الفائزون بالنعيم المقيم والنجاة من الجحيم .

٨- إبليس :

وها هو العدو الأكبر ، يكشف الله لنا عداوته قائلاً ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[٦] فعندما طرده الله – عز وجل – من رحمته ، وصار ملعوناً دعا قائلاً ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٧] فأجابه الله– عز وجل – بما تقتضيه حكمته ، لا بما أراد هو قائلاً – سبحانه - ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنظَرِينَ ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾[٨] حيث أراد إبليس أن ينظر إلى يوم البعث ، ولكن اقتضت حكمة الله ومشيئته أن يؤخر إلى الوقت الذي حدده لفناء الخلائق ، وهو وقت النفخة الأولى ، وهنا يكشف السياق عن هدف دعوته قائلاً ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي : لأغوين بنى آدم جميعاً بالمعاصي ، ولكن يأتي الجواب من الله – عز وجل – على هذا الملعون قائلاً– سبحانه - ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٩] فالآية تقرر أن وسوسته ليس لها أثر على المؤمنين الصادقين ، وهنا ما نطق به إبليس قائلاً ﴿ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾[١٠] فبعد ما توعد بنى آدم بالإغواء ، توعده ربنا – تبارك وتعالى – وكل من عصاه من الناس جميعاً بالعذاب قائلاً ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ، لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١١]

---

[١] سورة المؤمنون الآية : (١٠٧) .

[٢] سورة المؤمنون الآية : (١٠٨) .

[٣] سورة غافر الآية : (٤٩).

[٤] سورة المؤمنون الآيات (١٠٩ ، ١١٠) .

[٥] سورة المؤمنون الآية : (١١١) .

[٦] سورة فاطر الآية : (٦) .

[٧] سورة ص الآية : (٧٩).

[٨] سورة ص الآيات : (٨٠ ، ٨١) .

[٩] سورة الحجر الآيتان : (٤٢، ٤٣).

[١٠] سورة ص الآية : (٨٣) .

[١١] سورة س الآيات : (٨٤ ، ٨٥) .

ومن هذا البيان الموجز لحال الداعين نستخلص ما يلي :

١- اشتمل القرآن الكريم على عدة صيغ للدعاء ، ولكن أكثر الدعاء الوارد في القرآن الكريم جاء على صيغة فعل الأمر.

٢- يعد هذا التنويع لأسلوب الدعاء لونا عظيما من ألوان إعجازه ، ووجها بديعا من وجوه بلاغته .

٣- أن دعاء الأنبياء ليس وحده مستجابا ولكن لن يهمل أو يترك ربنا دعاء غيرهم ، بل توجهت العناية السماوية إليهم كما اتجهت نحو الأنبياء – عليهم السلام – فاستجاب الله للصالحين من عباده وغيرهم .

٤- أن من أعظم الدلائل الدالة على إعجاز القرآن الكريم ذكره لدعوات قد سجلها في الماضي كدعاء الأنبياء ، ودعوات في الحاضر كدعاء المؤمنين ، ودعوات في المستقبل كدعاء أهل الجنة والنار.

٥- استجابة الله لطلب إبليس فيه دلالة عظيمة على مدى رحمة الله - تعالى - بخلقه .

الفصل الثاني : دعاء الأنبياء المقبول

التمهيد:

أمَرَ الله - سبحانه- عباده بدعائه ووعدهم بالاستجابة فجمع- سبحانه- الأمر والوعد في آية واحدة فقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [1].

وقد صدق الله وعده لكل من استجاب للأمر والنداء، وخير من قام بأمر الله هم الأنبياء لذلك كان دعاؤهم مستجاباً ، فالدعاء مستجاب من كل مسلم مؤمن حقق شروط الدعاء وهنا يأتي سؤال مهم هو : ما هي الشروط التي إذا حققها المسلم كان دعاؤه مستجابا ؟

وقبل أن أبين هذه الشروط ينبغي أن نقف على معنى الشرط فأقول:

تعريف الشرط :

لغة: العلامة

واصطلاحا: ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته [2] .

والأدعية، والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحا تاما، لا آفة به، والساعد ساعدا قويا، والمانع مفقودا، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة، تخلف التأثير، فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه، أو كان ثم مانع من الإجابة، لم يحصل التأثير " [3] .

هذا وقد ذكر العلماء شروطاً لقبول الدعاء [4]هي كما يلي :

الشرط الأول: الإخلاص:

وهو تصفية الدعاء، والعمل من كل ما يشوبه، وصرف ذلك كلّه للَّه وحده، لا شرك فيه، ولا رياء، ولا سمعة، ولا طلباً للعرض الزائل، ولا تصنعاً، وإنما يرجو العبد ثواب اللَّه ، ويخشى عقابه، ويطمع في رضاه .

وقد أمر اللَّه- تعالى - بالإخلاص في كتابه الكريم، فقال - تعالى -: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [5] .

وقال - عز وجل - : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [6] .

وقال- سبحانه -: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [7] .

---

(1) سورة غافر: من الآية (٦٠)

(2) الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول: لأبي المنذر محمود بن محمد بن مصطفي المنياوي،

ص ٢٨٤ ،الناشر المكتبة الشاملة، مصر، الطبعة: الأولي، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م.

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي:لابن القيم ص١٥

(1) ينظر: شروط الدعاء وموانع الإجابة في ضوء الكتاب والسنة : لسعيد بن علي بن وهف القحطاني ١٩- ٢٧، دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ : لشحاتة محمد صقر ٢٣٨ -٢٤٢، الذكر والدعاء في ضوء الكتاب والسنة : لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ٣٧ -٣٨، من عجائب الدعاء : لخالد بن سليمان بن علي الربعي ص ٩ ، الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ٢ /٣١١، تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد : لسعيد الهادي ١ /١٣٢،

(2) سورة الأعراف: الآية (٢٩)

(3) سورة غافر : الآية (١٤)

(4) سورة البينة: من الآية (٥)

الشرط الثاني: المتابعة:

وهي شرط في جميع العبادات، لقوله- تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1].

والعمل الصالح هو ما كان موافقاً لشرع اللَّه- تعالى - ويُراد به وجه الله

- سبحانه- فلا بد أن يكون الدعاء والعمل خالصاً للَّه، صواباً على شريعة رسول اللَّه- صلى الله عليه وسلم –

ولهذا قال الفضيل بن عياض[2] في تفسير قوله - تعالى- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [3]. قال: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال: " إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون للَّه، والصواب أن يكون على السنة " [4]. ثم قرأ قوله- تعالى -: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [5] .

وقال- تعالى -: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [6]. فإسلامُ الوجه: إخلاصُ القصد، والدعاء والعمل للَّه وحده، والإحسانُ فيه: متابعة رسول اللَّه – صلى الله عليه وسلم – وسنته [7] .

فيجب على المسلم أن يكون متَّبِعاً للنبي– صلى الله عليه وسلم – في كل أعماله؛ لقوله- تعالى-:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾[8] وقال- تعالى-: ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾[9].

ولا شك أن العمل الذي لا يكون على شريعة النبي– صلى الله عليه وسلم- يكون باطلاً؛ لحديث عائشة – رضي الله عنها- عن النبي - صلى الله عليه وسلم-

أنه قال: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ " [10] .

وهنا يتضح مدى أهمية اتباع السنة في الدعاء:

حيث جاءت السنةُ النبوية بالهدي المبين والسَنن القويم والصراط المستقيم، الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، سواءً في الدعاء أو في غيره من الأعمال التي يُقصد بها التقرب إلي الله، فالسنة قد دلت علي جنس المشروع والمستحب في ذكر الله ودعائه كسائر العبادات، فقد بيَّن النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – لأمته ما ينبغي لهم أن يقولوه من ذكر ودعاء في الصباح والمساء، وفي الصلوات وأعقابها، وعند دخول المسجد، وعند النوم، وعند الانتباه منه، وعند الفزع فيه ، وعند تناول الطعام وبعده ، وعند ركوب الدَّابَّةِ، وعند السفر، وعند رؤية ما يحبه المرء، وعند رؤية ما يكره، وعند المصيبة، وعند الهم والحزن، أو غير ذلك من أحوال المسلم وأوقاته المختلفة [11] .

---

(٥) سورة الكهف: الآية (١١٠)

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي: شيخ الحرم المكيّ، من أكابر العباد الصلحاء. كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعيّ. ولد في سمرقند، ودخل الكوفة ، ثم سكن مكة وتوفي بها سنه (١٨٧هـ)،الأعلام للزركلي ١٥٣/٥.

(٢) سورة الملك: الآيتان (١-٢)

(٣) مدارج السالكين: لابن القيم ٨٨/٢-٨٩ .

(٤) سورة الكهف: الآية (١١٠)

(٥) سورة لقمان: الآية (٢٢)

(٦) مدارج السالكين: ٢ /٨٩ .

(٧) سورة الأحزاب: الآية (٢١)

(٨) سورة الأعراف: من الآية (١٥٨)

(١٠) متفق عليه، صحيح البخاري:حديث رقم ٢٦٩٧، ٣ /١٨٤ ، صحيح مسلم: حديث رقم ١٧١٨ ، ٣ /١٣٤٣

(١) ينظر: فقه الأدعية والأذكار: ٢ /٤٥

الشرط الثالث: الثقة بالله- تعالى -: واليقين بالإجابة:

فمن أعظم الشروط لقبول الدعاء الثقة بالله- تعالى -: وأنه على كل شيء قدير؛ لأنه- تعالى - يقول للشيء كن فيكون، قال - سبحانه -: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١). وقال - سبحانه -: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٢) .

ومما يزيد ثقة المسلم بربه- تعالى - أن يعلم أن جميع خزائن الخيرات والبركات عند الله- تعالى -: قال- سبحانه -: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٣) .

فالمسلم إذا علم أنَّ الخزائن بيدي الله وأنَّ خزائنه لا تنفدُ أبداً اطمئن قلبه، فيجب علي المسلم أن يدعو الله وهو موقن بالإجابة ، وهذا ما أمرنا به النبي- صلى الله عليه وسلم – في حديثه عن أبي هريرة - رضي الله عنه – أنه قال : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ... " (٤).

الشرط الرابع: حضور القلب والخشوع والرغبة:

فيما عند الله من الثواب والرهبة مما عنده من العقاب، فقد أثنى الله- تعالى - على زكريا وأهل بيته فقال- تعالى ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٥) .

فلا بد للمسلم في دعائه أن يستحضر قلبه، وهذا أعظم شروط قبول الدعاء لأن الله – عز وجل - لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه، وهذا ما أكد عليه النبي صلى الله عليه وسلم - في حديثه عن أبي هريرة - رضي الله عنه – أنه قال : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه " [٦] .

هذا وقد أمر الله- تعالى - بحضور القلب، والخشوع في الذكر والدعاء، فقال - سبحانه -: ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ [٧] .

وهنا يتبين: أن حضور القلب وخشوعه لله في الدعاء من أعظم شروط الاستجابة، وذلك لأن جملة (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) تعليل لما قبلها من إحسانه- سبحانه - إلى أنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- ، حيث بين المولى - سبحانه - في الآية الكريمة أسباب استجابة الدعاء وذكر منها (الرغبة، والرهبة، والخشوع) .

الشرط الخامس: العزم والجزم في الدعاء:

المسلم إذا سأل ربه فعليه أن يجزم ويعزم بالدعاء؛ وذلك لأن النبي- صلى الله عليه وسلم- قد نهى عن الاستثناء في الدعاء، فعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم – " إذا دعوتم الله فاعزموا في الدعاء، ولا يقولن أحدكم إن شئت فأعطني، فإن الله لا مستكره له " [٨] .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم –" إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه " (٩).

---

(٢) سورة النحل: الآية (٤٠)

(٣) سورة يس: الآية (٨٢)

(٤) سورة الحجر: الآية (٢١)

(١) أخرجه أحمد: رقم ٦٦٥٥ ، ٢/ ١٧٧ ، والحاكم، ١/ ٤٩٣ .

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان (٨٩ – ٩٠)

(٣) أخرجه أحمد: رقم ٦٦٥٥ ، ٢/ ١٧٧ ، والحاكم، ١/ ٤٩٣ .

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٠٥)

(١) صحيح البخاري: حديث رقم ٧٤٦٤ ، ٩ /١٣٧ .

(٩) صحيح مسلم: حديث رقم ٢٦٧٩ ، ٤ /٢٠٦٣ .

هذا وقد ذكر العلماء المراد بالعزم هنا، فقالوا : العزم هو الشدة في طلب المسألة ، والجزم من غير ضعف في الطلب، ولا تعليق على مشيئة ونحوها .
وقيل: هو حسن الظن بالله- تعالى - في الإجابة.

كما ذكر العلماء سبب كراهة التعليق علي المشيئة فقالوا: وسبب كراهته أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه، والله- تعالى - منزه عن ذلك، وهو معنى قوله - صلي الله عليه وسلم – في آخر الحديث (فإنه لا مستكره له) .

وقيل: سبب الكراهة أن في هذا اللفظ صورة الاستعفاء على المطلوب والمطلوب منه .

وهنا يتبين : استحباب الجزم في الطلب، وكراهة التعليق على المشيئة ، فالدعاء الذي يتصف بالعزم والجزم يكون أفضل وأقرب إلي الإجابة من الدعاء المجرد من العزم والجزم .

تلك هي الشروط التي ينبغي أن يتقيد بها الداعي عند دعائه حتى يكون دعاؤه أقرب إلى الاستجابة.
والحاصل: أن المسلم متى حقق شروط الدعاء، كان دعاؤه مستجابا، وإذا كان الدعاء مستجابا فإن الإجابة تتنوع، وفيما يلي نذكر أنواع الإجابة ومراتبها بإيجاز.

تعريف الإجابة :
يقال: أجاب الله دعاءه إجابة، المصدر: الإجابة، والاسم الجابة: كالطاعة، واسم الفاعل المجيب، وهو في أسماء الله تعالي: الذي يقابل الدعاء والسؤال بالعطاء والقبول، ويقال أيضاً: استجاب الله دعاءه استجابة واستجاب له (١).

أولاً : أنواع الإجابة:
قد ذكرنا أن الدعاء ينقسم إلي نوعين دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وكذلك الاستجابة تتنوع إلي نوعين فلكل نوع من الدعاء نوع من الاستجابة يناسبه، فاستجابة دعاء العبادة بإعطاء الثواب والأجر، واستجابة دعاء المسألة بإعطاء المسؤول.

وقد جاء هذا التقسيم من خلال تفسير العلماء لآية الدعاء وهي قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٢)
فمنهم من فسرها " ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ " أي : " اعبدوني أثبكم من عبادتكم " (٣). واستدلوا لهذا بقول الله- تعالى - فيما بعد: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾
ومنهم من فسرها " ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ " أي : اسألوني أعطكم " (٤) .

وزيادة في البيان أن استجابة دعاء العبادة تتمثل في الثواب عليها، وأن استجابة دعاء المسألة، تتمثل بقضاء الحوائج، وهذا ما أورده ابن القيم من أنَّ الاستجابة نوعان : استجابة دعاء الطالب بإعطائه سؤاله، واستجابة دعاء المُثني بالثواب، وبكل واحد من النوعين فسر قوله- تعالى - : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٥)، والصحيح أنه يعمُّ النوعين " (٦) .

---

(١) ينظر : لسان العرب ٢٨٣/١

(٢) سورة غافر : الآية (٦٠)

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت : ١٣٩٣هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع بيروت – لبنان عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

(٤) المنتخب في تفسير القرآن الكريم : للجنة من علماء الأزهر ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر، طبع مؤسسة الأهرام ، الطبعة: الثامنة عشر، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

(١) سورة البقرة :من الآية (١٨٦)

(٢) زاد المعاد: لابن القيم ١ / ٢٢٧.

وبناء على ما أورده ابن القيم فإن قبول الأعمال وقبول التوبات ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات، تمّثل إجابتهم وإثابتهم على هذا النوع من الدعاء (دعاء العبادة) .

ولا أبين من هذه الدلالة علي استجابة دعاء العبادة، فعندما صدر المؤمنون دعاءهم قائلين : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١) أجابهم الله قائلا: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (٢) .

أما إجابة دعاء المسألة فهي كثيرة ومنتشرة علي صعيد النص القرآني، فالله- تعالى - وعد من دعاه أن يجيب دعاءه ويحقق رجاءه ويعطيه سُؤله، فلقد استجاب الله – عز وجل – لعباده الصالحين من الأنبياء والمؤمنين، فأعطاهم ما سألوه، فمنهم من سأله النجاة ، ومنهم من طلب الذرية، ومنهم من سأله كشف الضر، ومنهم من سأله العون .

هذا وسيأتي إجابة دعاء العبادة، ودعاء المسألة بالتفصيل في هذا الفصل إن شاء الله .

ثانياً : مراتب الإجابة :

إنَّ المتتبع لآيات الإجابة في دعاء الأنبياء، يجد أنها تأتي في مرتبتين هما :

المرتبة الأولي : تحقيق الإجابة .

المرتبة الثانية : عدم تحقيق الإجابة .

المرتبة الأولي: تحقيق إجابة دعاء الأنبياء : وهي علي ضربين هما :

الأول: سرعة تحقيق إجابة الدعاء .

الثاني: تأخير الإجابة إلي حين .

أما الأول: فيقول الله – عز وجل - ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٣) هذا التعبير(فَإِنِّي قَرِيبٌ) هو تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجاحه حاجة من سأله بحال من قرب مكانه، فإذا دعي أسرعت تلبيته (٤). فلقد حقق الله- تعالى - دعوات طيبات لأنبيائه، استجيبت حين طُلبت فمن تلك الاستجابات التي كانت علي وجه السرعة قبول توبة أبينا آدم– عليه السلام – وسرعة الاستجابة لها، كما حكي القرآن عنها في قوله- تعالى -: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥). ومنها أيضاً صرف كيد النساء عن يوسف –عليه السلام – وذلك في قوله- تعالى-: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦) وصرف الكيد كان بالحال، بعد أن استعان بالله، وقد ذكر ابن منظور أن الصرف :" رد الشيء عن وجه "(٧). فلا بد أن يكون الصرف سريعاً .

وغير ذلك من الاستجابات التي جاءت علي وجه السرعة وسيأتي بيان ذلك كله .

وأما الثاني (تأخير الإجابة إلي حين) : فهو أمر يستوي فيه الأنبياء والعباد، فكما تتأخر إجابات العباد كذلك استجابات الله لأنبيائه قد تتأخر لحين، فالإجابة إما أن يعجلها الله لنبيه، و إما أن يؤخرها له، فالإجابة علي مراد الله وحكمته .

---

(٣)سورة آل عمران : الآية (١٩٤)

(٤) سورة آل عمران : الآية (١٩٥)

(١) سورة البقرة :من الآية (١٨٦)

(٢) الكشاف: للزمخشري ١ /٢٢٨ .

(٣) سورة البقرة: الآية (٣٧)

(٤) سورة يوسف: الآية (٣٤)

(٥) لسان العرب: لابن منظور ٩ / ١٨٩ .

ومن تلك الاستجابات التي تحققت علي التراخي دعوة صادقة، صعدت من الخليل إبراهيم- عليه السلام - لتتحقق بعد آلاف السنين، وتتمثل في إرسال نبيّ يعلمنا الحكمة في ديننا ويزكي نفوسنا قائلاً: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

فكانت الاستجابة علي التراخي كما حكي القرآن قائلاً: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) .

المرتبة الثانية: عدم تحقيق الإجابة :

فالسماء قبلة الدعاء، وقد يستجاب الدعاء، وقد لا يستجاب، وذلك لأن الدعاء لابد ان يكون موافقا لإرادة الله، وللمشيئة الربانية.

ومن تلك الأدعية غير المستجابة، دعاء نوح – عليه السلام – في شفاعته لولده حين قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾(٣). فكان الرد الإلهي:﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (٤).

ويعلل القرآن الكريم لعدم استجابة هذه الدعوة بقوله - تعالى-: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ (٥) فدل ذلك علي أن العمل الصالح سبب للنجاة في الدنيا، وشرط لدخول الجنة في الآخرة .

هذا وقد وردت أدعية أخرى لبعض الأنبياء لم تستجب، ولكن سيأتي الحديث عن دعاء الأنبياء غير المستجاب، بالتفصيل في الفصل الثالث إن شاء الله .

ومن خلال ما سبق يتبين: أن الإجابة ربما تتأخر ويكون التأخير لحكمة إلهية غائبة عن أذهاننا؛ لتمييز المؤمن الصادق من المنافق، وتمحيص أهل الإيمان فيحصلون علي أعلي الدرجات، " فلا ينبغي للعبد أن يقطع الدعاء، إذا لم يرَ له إجابة عاجلة، بل يحسن الظن بالله -- تعالى -- ويرجو أن يكون تأخير الله إجابة دعائه؛ لأنه ممن يحبه، فأراد أن يسمع تضرعه " (٦).

(١) سورة البقرة: الآية (١٢٩)

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٦٤)

(٣) سورة هود: من الآية (٤٥)

(٤) سورة هود: من الآية (٤٦)

(٥) السورة والآية السابقتان .

(٦) المنهاج: للحليمي ١ / ٥٣٢ .

المبحث الأول: الدعاء بطلب المغفرة:

أكثر الدعاء الوارد في القرآن الكريم جاء علي لسان الأنبياء، فقد ورد ما يقرب من ستٍّ ومائة دعاء جاء علي لسان الأنبياء، ولكن يلحظ أن هناك تفاوتاً بين نسبة أدعية كل واحد منهم عن الآخر، فضلاً عن خصوصية دعائه، فنقل عن إبراهيم وموسي ونوح ونبينا -عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام- نصوص دعائية فاقت ما نقل عن غيرهم من الأنبياء أمثال زكريا وسليمان ويوسف وأيوب ....إلخ .

وسيكشف البحث من خلال جمع الأدعية وتفريقها علي سور عدّة ، ميزات خاصة ودلالات لطيفة ينطق عنها سياقها، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المغفرة تكون للنفس غالباً؛ إلا أني جعلت لها مبحثاً خاصاً، لكثرة ما ورد فيها في القرآن الكريم، ولِما له من خصوصية ينبغي التعلم منها ، وسنبدأ بعرض دعاء آدم- عليه السلام- تقديراً لأبوته للبشرية كلها، ولأنه أول خليفة لله في أرضه، يدعو إلي توحيده وعبادته، ولما في ذلك من مراعاة الترتيب الزمني لكل نبي .

<u>دعاء آدم – عليه السلام :</u>

على الرغم من كثرة ورود قصة آدم – عليه السلام – في القرآن الكريم إلا أن دعاءه بطلب المغفرة لم يذكر إلا في موضع واحد في قوله- تعالى -: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ [١].

بداية: نذكر سبب هذه الدعوة وهو:

أن الله – عز وجل – أوحى إلي آدم وزوجه ، أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا شجرة بعينها في الجنة ، ولكن نسي فعصى ربه، وأكلا من الشجرة ، قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [٢]وقال- تعالى -: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [٣]. فحينئذ تقدم بطلب العفو والمغفرة فقال هو وزوجه: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾.

ففي قوله- تعالى -: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ اعتراف منهما بالعصيان، وبأنهما علما أن ضرر المعصية عاد عليهما، فكانا ظالمين لأنفسهما [٤].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي: إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا [٥].

وقد أكدا جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد إظهارا لتحقيق الخسران استرحاما واستغفارا من الله- تعالى - [٦].

فهذا اعتراف ورجوع وإنابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه- تعالى- في الساعة الراهنة، وهذا السِّرُّ ما سَرَى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلي خير في دنياه وأخراه " [٧].

([١]) سورة الأعراف: الآية (٢٣)

([٢]) سورة طه: الآية (١١٥)

([٣]) سورة طه : من الآية (١٢١)

([٤]) التحرير والتنوير: لابن عاشور، ٨ / ٦٧ بتصرف .

([٥]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للسعدي، ٢٨٥ .

([٦]) التحرير والتنوير: لابن عاشور، ٨ / ٦٧ .

([٧]) البداية والنهاية : لابن كثير ١ / ١٨٤ تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م ، سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

فآدم وزوجه اعترفا بالخطيئة وتابا من الذنب وطلبا من الله المغفرة والرحمة، فكانت الإجابة من الله – عز وجل – بقبول التوبة والمغفرة في قوله- تعالى -: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [١].

ومعني تلقي الكلمات أي: استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها [٢].

وعبر بالفاء في قوله: (فَتَلَقَّى) إيذاناً بمبادرة آدم بطلب العفو[٣]. فالتوبة حصلت عقيب الأمر بالهبوط قبل تحقق المأمور به [٤]. وتلقي آدم للكلمات إما بطريق الوحي أو الإلهام [٥] .

ولقد اختلف أهل التأويل [٦]. في أعيان الكلمات التي تلقاها آدم من ربه وذلك علي ستة أوجه:

الوجه الأول:

عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : قال آدم عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت، أعايدي إلى الجنة ؟ قال: نعم. قال: فذلك قوله: فتلقى آدم من ربه كلمات " (٧).

الوجه الثاني:

عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي - صلى الله عليه وسلم – قال: " لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وُجَاهَ الكعبة، فصلى ركعتين، فألهمه الله هذا الدعاء: اللهم إنك تعلم سريرتي، وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنبي. اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي، ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي، ورضا بما قسمت لي. فأوحى الله إليه: يا آدم، إني قد قبلت توبتك، وغفرت لك ذنبك، ولن يدعوني أحد بهذا الدعاء إلا غفرت له ذنبه، وكفيته المهم من أمره، وزجرت عنه الشيطان، واتجرت له من وراء كل تاجر، وأقبلت إليه الدنيا راغمة ، وإن لم يردها " (٨) .

---

[٢] سورة البقرة : الآية (٣٧)

[٣] الكشاف: للزمخشري ١ / ١٢٨ .

[٤] التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) ١ /٤٣٧ ، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .

[٥] تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود ، ١ / ٩٢ .

[٦] التحرير والتنوير: لابن عاشور١ /٤٣٧ .

[٧] ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ١ / ٥٤٢ ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م ، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت : ٣٢٧هـ)، ١ / ٩٠ تحقيق: أسعد محمد الطيب ، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ ، تفسير القرآن العظيم : لابن كثير ٢٣٨ – ٢٣٩ ، اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني(ت : ٧٧٥هـ) ، ١ / ٥٧٥ – ٥٧٦ ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م .

[٢] قال ابن كثير: هذا غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع .

[٣] المعجم الأوسط: لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ٦ / ١١٧ – ١١٨، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة .

الوجه الثالث:

قال أبو العالية: (١) في قوله- تعالى - ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ (٢). فهو قوله: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ (٣) . (٤) .

الوجه الرابع:

عن قتادة (٥) في قوله- تعالى - ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ قال: هو قوله ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦)

الوجه الخامس:

عن ابن عباس في قوله- تعالى - ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ قال: هو قوله ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِين ﴾ (٧) .

الوجه السادس:

عن مجاهد (٨). في قوله- تعالى - ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ قال: قوله ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِين ﴾(٩).

ومن خلال ذكر هذه الأوجه يتبين، أن أرجح ما قيل في تعيين هذه الكلمات هو ما أشار إليه القرآن الكريم في سورة الأعراف بقوله- تعالى -: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِين ﴾ وذلك لسببين هما:

الأول: أن أكثر الروايات الواردة في ذكر مفهوم الكلمات جاءت مفسرة بقوله - تعالى- : ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِين ﴾ بخلاف الروايات الأخرى ، فمنها ما هو ضعيف، ومنها ما هو مقطوع كرواية أبي بن كعب .

الثاني: أن آدم وزوجه حينما قالا: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِين ﴾ معاً وفي نَفَس واحد دَلَّ ذلك علي أنهما قد تعلماها، وذلك لأن كلا منهما لو اعتذر لله بمفرده لاختلفا في أسلوب الاعتذار"

---

(١) أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري، الإمام، المقرئ، الحافظ، المفسر، أبو العالية الرياحي، البصري، أحد الأعلام، كان مولى لامرأة من بني رياح بن يربوع، ثم من بني تميم، أدرك زمان النبي - صلي الله عليه وسلم - وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه، وسمع من: عمر، وعلي، وأبي، وأبي ذر، وابن مسعود، وعائشة، وأبي موسى، وأبي أيوب، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعدة، وحفظ القرآن، وقرأه على: أبي بن كعب، وتصدر لإفادة العلم، مات أبو العالية في شوال، سنة تسعين، وقال البخاري وغيره: مات سنة ثلاث وتسعين // سير أعلام النبلاء ٤ / ٢٠٧ – ٢١٣ .

(٢) سورة البقرة : من الآية (٣٧)

(٣) سورة الأعراف: من الآية (٢٣)

(٤) صحيح البخاري: باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ٤ / ١٣١ .

(٥) قتادة بن النعمان ابن زيد بن عامر الأمير، المجاهد، أبو عمر الأنصاري، الظفري، البدري ، من نجباء الصحابة، وهو أخو أبي سعيد الخدري لأمه ، وهو الذي وقعت عينه على خده يوم أحد، فأتى بها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فغمزها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده الشريفة، فردها، فكانت أصح عينيه، له أحاديث روى عنه: أخوه؛ أبو سعيد، وابنه؛ عمر، ومحمود بن لبيد، وغيرهم، وكان على مقدمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما سار إلى الشام، وكان من الرماة المعدودين، عاش خمسا وستين سنة، توفي في سنة ثلاث وعشرين بالمدينة، ونزل عمر يومئذ في قبره // سير أعلام النبلاء ٤ / ١١ - ١٢ .

(٦) اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص ١ / ٥٧٥ .

(٧) الدر المنثور: لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ١ / ١٤٤ ،الناشر: دار الفكر – بيروت .

(١) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكيّ، مولى بني مخزوم: تابعي، مفسر من أهل مكة. قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت ؟ وتنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها، ويقال: أنه مات وهو ساجد // سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٧٨ .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: لابن جرير الطبري ١ / ٥٤٥ .

وقوله- تعالى -: ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [1]. أي: فتجاوز عنه وغفر له، والفاء للدلالة على ترتبه على تلقي الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التي هي عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود إليه .

واكتُفي بذكر توبة آدم – عليه السلام - هنا دون حواء ، لأنها تبعٌ له في الحكم ولذلك طُوي ذكر النساء في أكثر مواقع الكتاب والسنة [2].

وقيل: لأن المرأة حرمة ومستورة، فأراد الله الستر بها، ولذلك لم يذكرها [3] .

ويختلف مدلول التوبة وذلك حسب السياق، فالتوبة في حق الله تعني الرجوع عن العقاب إلي المغفرة، وفي حق العبد تعني الرجوع عن المعصية " فأصل التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية وإذا وصف به الباري- عز وعلا- أريد به الرجوع عن العقاب إلى المغفرة " [4].

وقوله- تعالى -: ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ [5]. أي: الرجّاع على عباده بالمغفرة أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة

وقوله- تعالى -: ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي: المبالغ في الرحمة وفي الجمع بين الوصفين وعد بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران، والجملة تعليل لقوله - تعالى -: ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [6].

وهنا تتجلى بعض الفوائد [7] من دعوة آدم - عليه السلام – وهي كما يلي:

١- إن تقديم الاعتراف بالخطأ، وظلم النفس قبل طلب المغفرة هو أرجى في قبول المغفرة والإجابة .

٢- أهمية التوسل بربوبية الله- تعالى - حال الدعاء، كما في تصدير دعائهم بـ (ربنا) الذي يدل على التربية، والعناية، والإصلاح، ومن ذلك إجابة دعائهم .

٣- منة الله- تعالى - على آدم بقبول التوبة، فيكون في ذلك منتان : الأولى: التوفيق للتوبة، والثانية: قبول التوبة، وهذه مِنَّةٌ عامة لكل من يتوب إلى الله تعالى-: فينبغي للعبد أن يشكر ربه أن وفقه للتوبة .

٤- تضمنت هذه الدعوة أخلص شروط التوبة النصوح، وهي: ترك الذنب، والندم عليه، والعزيمة مستقبلا على عدم العودة إليه .

٥- هذه الدعوة من أفضل الصيغ في طلب المغفرة؛ لأن ربنا علمها أبا البشر، وجعلت قرآنا يتلى إلى قيام الساعة .

٦- من كمال الدعاء أن يجمع الداعي حال دعائه بين الرغبة والرهبة والتوبة: ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِين ﴾ .

٧- فيها بيان أن الذنب ينبغي أن يستعظم، وإن كان صغيرا؛ فإنه في حق العظيم عظيم .

([0]) سورة البقرة : من الآية (٣٧).

([1]) فتحُ البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣هـ) ١ / ١٣٨ ، قدم له وراجعه: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنشْر، بيروت ، عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م ، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود ، ١ / ٩٢ .

([2]) اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص ١ / ٥٧٨ .

([3]) تفسير أبي السعود: ١ / ٩٢ .

([4]) سورة البقرة : من الآية (٣٧)

([5]) السابق: ١ / ٩٢ .

([6]) شرح الدعاء من الكتاب والسنة: لأبي عبد الرحمن ماهر بن عبد الحميد بن مقدم، ١٦٧ – ١٦٨ ، شرحه: ماهر بن عبد الحميد بن مقدم ، صححه وخرّج أحاديثه وقدم له مؤلف الأصل ، الناشر: مطبعة سفير، الرياض

ومن خلال ما سبق من ذكر دعوة آدم-عليه السلام – يتضح:

أن آدم –عليه السلام – وزوجه قد عصيا ربهما فَدَعَواه قائلَيْن ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِين ﴾ [١]. فتاب الله عليهما وغفر لهما كما حكى القرآن الكريم في قوله- تعالى -: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبه كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [٢].

وهذه سنة الله لآدم وذريته وإن كان الذنب عظيماً، فالناظر في ثنايا القرآن الكريم، يجد من الشواهد العظيمة والبراهين الساطعة التي تدل علي أن الله – عز وجل- يقبل توبة التائب إذا تاب ورجع إليه- سبحانه - وهذا من كمال رحمته وعنايته ولطفه وكرمه علي عباده . ومن هذه الشواهد ما يلي:

١- قوله- تعالى -: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [٣].

٢- قوله- تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [٤].

٣- قوله تعالى:﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٥].

٤- قوله- تعالى -: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٦].

٥- قوله- تعالى -: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [٧].

٦- قوله- تعالى -: ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [٨].

٧- قوله- تعالى -: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [٩].

٨- قوله- تعالى -: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ [١٠].

٩- قوله- تعالى -: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ [١١].

وغير ذلك من الآيات الدالة علي أنه- تعالى -يغفر الذنوب ويتوب علي من تاب .

دعاء نوح – عليه السلام :

قد ورد دعاء نوح – عليه السلام – بطلب المغفرة وذلك في موضعين:

الموضع الأول:

قوله- تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٢).

---

(٢) سورة الأعراف: من الآية (٢٣)

(٣) سورة البقرة : الآية (٣٧)

(١) سورة البقرة: الآية (١٦٠)

(٢) سورة النساء: الآية (١١٠)

(٣) سورة المائدة: الآية (٣٩)

(٤) سورة الأنعام: من الآية (٥٤)

(٥) سورة التوبة: من الآية (١٠٤)

(٦) سورة الفرقان: الآية (٧٠)

(٧) سورة الزمر: الآية (٥٣)

(١٠) سورة غافر: من الآية (٣)

(١١) سورة نوح: الآية (١٠)

(١) سورة هود: الآية (٤٧)

سبب هذه الدعوة:

أن نوحاً – عليه السلام – قد سأل ربه الرحمة لابنه، دون علم ووقوف على ما تقتضيه الحكمة الإلهية، من إنفاذ هذا السؤال بالعطاء أو المنع، فهو عند السؤال لم يكن يعلم أن نسب ابنه إليه قد انتهي بكفره وإعراضه عن دعوة الله ، قال - تعالى -: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [1] فأجابه الله قائلا : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ [2]. حينئذ علم أن سؤاله هذا كان بدون علم ويعد ذنباً، لذلك أسرع في طلب المغفرة نادما راجيا العفو والرحمة من ربه قائلا: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

فقوله- تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ﴾

الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله- تعالى -، والالتصاق بجانبه ، من شر كل ذي شر[3] .

ويقول ابن القيم: " لفظ عاذ وما تصرف منه، يدل على التحرز والتحصن والنجاة ، وحقيقة معناها- أي الاستعاذة - الهروب من شيء تخافه ، إلى من يعصمك منه " [4] .

واكتفي بذكر قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ﴾ ولم يقل: (قال رب إني أعوذ بك منه أو من ذلك) مبالغة في التوبة وإظهارا للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله- تعالى - [5].

وجاء التعبير بقوله - عليه السلام - ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ﴾ ولم يقل (أتوب إليك أن أسألك) للدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لا محيص منه إلا بالعوذ بالله- تعالى - وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره إلا بذلك [6].

وقوله- تعالى -: ﴿ أَنْ أَسْأَلَكَ ﴾ أي: أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته، تأدبا بأدبك واتعاظا بموعظتك [7].

وقوله- تعالى -: ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي: مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلبا لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال [8].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي ﴾ أي: ما فرط منى من ذلك، وترحمني بقبول توبتي [9].

وهنا يطرح السؤال نفسه، كيف طلب نوح – عليه السلام – الرحمة لابنه مع علمه بأنه كافر وذلك بعدم ركوبه السفينة وغرقه ؟

فذلك لأنه يطمع لعل الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به، فسؤاله له المغفرة بمنزلة الشفاعة له عند الله- تعالى -.

فالآية تتميز بنمط خاص، حيث إن الله – عز وجل – خاطب نوحاً– عليه السلام – بقوله- تعالى -: ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [10] ومع علمه بهلاكه دفعته الأبوة البشرية، والعاطفة الإنسانية، والرحمة الإيمانية إلى سؤال الرحمة لابنه .

---

[2] سورة هود: الآية (٤٥)

[3] سورة هود: الآية (٤٦)

[4] تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ١ / ١١٤ .

[1] بدائع الفوائد: لابن القيم ٢ / ٤٢٦ .

[2] تفسير أبي السعود: ٤ / ٢١٣ .

[3] السابق نفسه .

[4] الكشاف: للزمخشري ٢ / ٤٠٠ .

[5] تفسير أبي السعود: ٤ / ٢١٣ .

[6] الكشاف: ٢ / ٤٠٠ ، تفسير أبي السعود: ٤ / ٢١٣ .

[1] سورة هود: من الآية (٣٧)

وقوله- تعالى -: ﴿ أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم بالاحتجاب عن علمك وحكمتك [1].

ويلاحظ في دعاء آدم ونوح - عليهما السلام – أنه ختم بوصف الخسران في قوله- تعالى -: ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِين ﴾ [2] وقوله- تعالى-: ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ [3].
وذلك لأن العبد لو لم يرحمه الله ويتداركه بمغفرته لهلك وخسر، ولهذا علق المولي - سبحانه - الفلاح المطلق على فعل التوبة والإنابة إليه- سبحانه - وذلك في قوله- تعالى -: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

كما بين الله – عز وجل – أنه لا نجاة ولا فلاح ولا فوز إلا بالتمسك بأوامر الله ونواهيه، فطلب المغفرة والرحمة من أعظم ما يسأل العبد ربه، لذلك لما سأل الصديق أبو بكر– رضي الله عنه - رسول الله – صلى الله عليه وسلم - أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته دله علي صيغة تتضمن طلب المغفرة والرحمة من الله الغفور الرحيم ، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما - أن أبا بكر - رضي الله عنه - قال: " يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي". فقال: " قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم" [4].

بالإضافة إلي ما ورد في فضل التوبة ومثوبة التائبين، من آيات قرآنية وأحاديث نبوية

أما القرآن:

فقد قال الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [5].
وقال- تعالى -: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [6].
وقال- تعالى -: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [7].
فمن لطف الله بعباده، أن وصف نفسه بأنه غافر، وأنه غفور، بل وأنه غفار يظهر الجميل، ويستر القبيح .

وأما السنة :

فقد تضافرت الأحاديث النبوية عن فضل التوبة وعلى رأسها ما روي عن أنس- رضي الله عنه - قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم، سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة ".
وفي رواية عن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم-: لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح ".
هذا عن فضل التوبة، أما عن مثوبة التائبين فقد أخبر الله – عز وجل– عن إكرامه وإحسانه للتائبين في قوله- تعالى -: ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾

---

[2] التفسير الوسيط للقرآن الكريم: لمحمد سيد طنطاوي ٧ / ٢١٥، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى .
[3] سورة الأعراف: من الآية (٢٣)
[4] سورة هود: من الآية (٤٧)
[6] صحيح البخاري: باب الدعاء قبل السلام ، حديث ٨٣٤ ، ١ / ١٦٦ .
[1] سورة البقرة: من الآية (٢٢٢)
[2] سورة الشورى: الآية (٢٥)
[3] سورة البقرة: الآية (١٦٠)

وحديث النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما رواه أبو ذر(١) -رضي الله عنه - قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: " إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة، وآخر أهل النار خروجا منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب، قد عملت أشياء لا أراها ها هنا " فلقد رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ضحك حتى بدت نواجذه (٢) .

وعلق ابن تيمية على هذا الحديث وتلك الآية الكريمة فقال - رحمه الله- " التائب عمله أعظم عن عمل غيره، ومن لم يكن له مثل تلك السيئات فإن كان قد عمل مكان سيئات ذلك حسنات فهذا درجته بحسب حسناته، فقد يكون أرفع من التائب إن كانت حسناته أرفع، وإن كان قد عمل سيئات ولم يتب منها فهذا ناقص، وإن كان مشغولا بما لا ثواب فيه ولا عقاب فهذا التائب الذي اجتهد في التوبة والتبديل له من العمل والمجاهدة ما ليس لذلك الْبَطَّالِ " (٣) .

هذه الآيات وغيرها من الأحاديث النبوية تدل دلالة واضحة على فضل التوبة، وعِظَم شأنها وعلو قدرها عند الله - تعالى - وأن الله – عز وجل – أشد فرحا بتوبة عبده من فرحته هو بنجاته بعد هلاكه .

ويأتي القرآن مبشراً نوحا – عليه السلام – بقبول توبته قائلا: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٤].

فقوله- تعالى -: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ ﴾ أي: انزل من الفلك وقرئ بضم الباء (٥) .

وقوله- تعالى -: ﴿ بِسَلامٍ ﴾ أي: متلبسا بسلامة من المكاره كائنة (٦) .

وقوله- تعالى -: ﴿اهْبِطْ بِسَلامٍ ﴾ فيه إشارة إلى أنه كان قبل الهبوط في ضيافة الله ورعايته، وأنه لولا عناية الله به وبمن معه من المؤمنين، لما نجت السفينة من ذلك الطوفان العظيم (٧) .

وقوله- تعالى -: ﴿ مِنَّا ﴾ أي: بسلام وتحية منا عليك كما قال ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ (٨). (٩) .

وجاء التعبير بقوله: ﴿ مِنَّا ﴾ لزيادة التكريم، وتأكيد السلام. أي: انزل بسلام ناشئ من عندنا، وليس من عند غيرنا ؛ لأن كل سلام من غيرنا لا قيمة له بجانب سلامنا [١٠].

---

(٢) أبو ذر الغفاري صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم - اختلف في اسمه اختلافا كبيرا، والأظهر أنه جندب بن جنادة. وهو من أعيان الصحابة. قديم الإسلام. أسلم بمكة قبل الهجرة، ورجع إلى بلاد قومه، ولم يشهد مع النبي – صلى الله عليه وسلم - بدرا ، وشهد فتح بيت المقدس مع عمر بن الخطاب، وقدم دمشق وتوفي لأربع سنين بقيت من خلافة عثمان، وصلى عليه عبد الله بن مسعود سنة اثنتين وثلاثين . // مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: لابن منظور (ت: ٧١١هـ) ، ٢٨ / ٢٧٦ – ٢٧٧ ، تحقيق: وحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع ، الناشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سوريا ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٤م .

(٣) صحيح مسلم: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، حديث ٣١٤ ، ١ / ١٧٧ .

(٤) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: لشمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت : ١١٨٨هـ) ،٢/ ٥٨٩ ، الناشر : مؤسسة قرطبة – مصر، الطبعة : الثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م

(١) سورة نوح: الآية (٤٨)

(٢) تفسير أبي السعود: ٤ / ٢١٤ .

(٣) السابق: الجزء، والصفحة .

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: للطنطاوي ، ٧ / ٢١٦ .

(٨) سورة الصافات : الآية (٧٩)

(١) تفسير أبي السعود: ٤ / ٢١٤ .

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: للطنطاوي ، ٧ / ٢١٦ .

وقوله- تعالى -: ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أي: خيرات نامية في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق وقرئ بركة وهذا إعلان وبشارة من الله- تعالى - بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه في كل ما يأتي وما يذر(١) .

وقوله- تعالى -: ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ ﴾ ناشئة (٢) .

وقوله- تعالى -: ﴿ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ أي: إلى يوم القيامة متشعبة منهم فـ (من) ابتدائية والمراد الأمم المؤمنة المتناسلة ممن معه إلى يوم القيامة (٣).

وقوله- تعالى -: ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ أي: في الدنيا، وقيل: نمتعهم متاع الدنيا وهم الكفار إلي يوم القيامة (٤) .

وإنما سموا أمما لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الأمم إنما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالأمم المشار إليهم في قوله- تعالى – (وأمم سنمتعهم) بعض الأمم المتشعبة منهم وهي الأمم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة (٥) .

وقوله- تعالى -: ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة وهم الكفار.

وقوله - سبحانه - وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم كلام مستأنف مسوق للاحتراز والتحذير من سوء عاقبة المخالفة لأمر الله . أي: أن الأمم التي تكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين:

قسم منهم له منا السلام، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح .

وقسم آخر سنمتعه في الدنيا وبالكثير من زينتها وخيراتها، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمنا، وعصيانه لرسلنا

وهذه الدعوة تتميز بآداب عظيمة ينبغي للداعي أن يراعيها في دعائه منها ما يلي:

١- ينبغي للداعي أن يتفقه في باب الدعاء حتى يدعو على علم، وبصيرة، وفهم .

٢- ينبغي للعبد الاعتناء في طلب هذين المقصدين العظيمين: المغفرة، والرحمة حال دعائه، كما في غالب الأدعية؛ لأن فيهما الوقاية والعناية .

٣- ينبغي للداعي أن يعتني بالأدعية الشرعية؛ فإن فيها السلامة من الخلل، والزلل، وفيها كمال المقصد والمقاصد

الموضع الثاني:

قوله- تعالى -: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾

فقوله- تعالى -: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ أي: يا رب أسألك أن تغفر لي ذنوبي، وأن تغفر لوالدَيَّ - أيضا- ذنوبهما

واختلف المفسرون حول تحديد الوالدين وذلك على قولين هما:

الأول: أبوه لمك بن متوشلخ، وأمه شمخا بنت أنوش: كانا مؤمنين .

الثاني: هما آدم وحواء .

وقوله- تعالى -: ﴿ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً ﴾ أي: واغفر يا إلهي لكل من دخل بيتي وهو متصف بصفة الإيمان

والمراد بالبيت هنا، قيل: منزلي، وقيل: مسجدي، وقيل: سفينتي، وقيل: لمن دخل في دينه. وقرأ الجمهور بيتي بسكون ياء المتكلم. وقرأ غيره بتحريكها.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤ / ٢١٤ .

(٢) السابق: الجزء، والصفحة .

(٣) نفسه: ٤ / ٢١٥ .

(٤) تفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ) ص ٢٩١ ، الناشر: دار الحديث – القاهرة ، الطبعة: الأولى ، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ، ١ / ٣٧٢ .

(٥) تفسير أبي السعود: ٤ / ٢١٥ .

وهذا القيد ﴿ مُؤْمِناً ﴾ جاء منصوباً علي الحال، أي: " لمن دخل بيتي متصفا بصفة الإيمان، فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كامرأته وولده " (١) .

وقوله- تعالى -: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ عمهم بالدعاء إثر ما خص به من يتصل به نسبا ودينا (٢) .

واختلفوا في تعيين (المؤمنين والمؤمنات) على ثلاثة أقوال (٣) هي:

الأول: عامة إلى يوم القيامة .

الثاني: من أمة محمد – صلي الله عليه وسلم - .

الثالث: من قومه، والأول أظهر .

وقوله- تعالى -: ﴿ وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ أي: ولا تزد الظالمين إلا هلاكا وخسارا ودمارا (٤) .

وهنا تتجلى أهمية الدعاء للمؤمنين، بالتوفيق والمغفرة والرحمة والإعانة على الخير، إذ إنَّ الجميع مشتركون في الحاجة إلي ذلك، يقول ابن القيم " والجميع مشتركون في الحاجة بل في الضرورة إلي مغفرة الله وعفوه ورحمته فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم كذلك هو أيضا ينبغي أن يستغفر لأخيه المسلم فيصير هِجِّيرَاهُ [٥]: رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات " [٦].

ومما يدل على فضل وعلو مكانة الدعاء للمؤمنين ذكر هذه الدعوة على ألسنة الأنبياء والرسل الكرام فهذا نوح – عليه السلام – يتضرع بها إلى الله قائلاً : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ [٧].

وها هو الخليل إبراهيم – عليه السلام – قد أجراها الله على لسانه قائلا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [٨].

ويأتي خاتم الأنبياء محمد – صلى الله عليه وسلم – مأموراً بها في قوله - تعالى-: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [٩].

كما امتدح الله - عز وجل – المؤمنين الذين أخلصوا في دعائهم لإخوانهم، وطلبوا لهم من الله المغفرة والرحمة في قوله- تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [١٠].

وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض ويدعو بعضهم لبعض؛ بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض... ولهذا ذكر الله في هذا الدعاء نفي الغل عن القلب. الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح[١١].

(٣) فتح القدير: للشوكاني ٥ / ٣٦٢ .

(٤) أبو السعود: ٩ / ٤٢ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي ، ١٨ / ٣١٤ .

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: للطنطاوي ، ١٥ / ١٢٦ .

(٥) أي: دأبه وشأنه وعادته . ينظر : لسان العرب (هجر) .

(٨) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة : لابن القيم، ١ / ٢٩٨ ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت .

(١) سورة نوح: الآية (٢٨)

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٤١)

(٣) سورة محمد: من الآية (١٩)

(٤) سورة الحشر: الآية (١٠)

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للسعدي، ٨٥١ .

هذا وقد ورد في فضل الدعاء للمؤمنين أحاديث كثيرة منها:

ما روي عن عُبادة بن الصامت (١)- رضي الله عنه – قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة " (٢) .

وعن عن أبي الدرداء (٣).- رضي الله عنه – : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم – قال: " دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثله " (٤) .

ومن خلال ما سبق من ذكر دعاء نوح – عليه السلام – يتبين:

أن نوحا – عليه السلام - عندما استشعر أنه قد أذنب في حق ربه بسؤاله بدون علم، توجه إلي ربه معتذراً ومعترفاً بخطيئته ومستغفرا منها قائلا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٥). فجاءت الإجابة مبشرة نوحا – عليه السلام – في قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦) .

كما يستحب الدعاء بالمغفرة والرحمة للمؤمنين كما ورد في هذا الدعاء ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ (٧) . اقتداءً بنوح -عليه السلام – وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة .

كما يلاحظ أن نوحا – عليه السلام – بدأ بنفسه في الدعاء، وهذا من سننه وآدابه العظيمة، أن يبدأ الداعي بالدعاء لنفسه ثم لغيره .

كما يتبين أنه كما شمل دعاؤه هذا (للمؤمنين والمؤمنات) كل مؤمن ومؤمنة إلي يوم القيامة، كذلك شمل دعاؤه هذا (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) كل ظالم إلي يوم القيامة .

كما تدل تلك الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية دلالة بالغة على فضل الدعاء للمؤمنين بالمغفرة والرحمة، فحري بكل مسلم أن يكثر من الدعاء لإخوانه لينال تلك الأجور الكريمة والفضائل العظيمة .

---

(١) عبادة بن الصامت بن قيس. بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج ويكنى أبا الوليد وأمه قرة العين بنت عباده ابن نضلة بن مالك شهد عبادة العقبة مع السبعين من الأنصار. وهو أحد النقباء الاثني عشر وشهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم – ومات بالرملة من أرض الشام سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان بن عفان وهو ابن اثنتين وسبعين سنة.// الطبقات الكبرى لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت: ٢٣٠هـ) ٧ / ٢٧١ ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، ناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

(٢) مسند الشاميين: لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٤٠٥ – ١٩٨٤ .

(٣) عويمر بن عامر ويقال: عويمر بن ثعلبة بن عامر بن زيد بن قيس بن أمية بن مالك أبو الدرداء الأنصاري الخزرجي ، وكان من أفاضل الصحابة وفقهائهم وحكمائهم، روى عنه: أنس بن مالك، وفضالة بن عبيد، وأبو أمامة، وعبد الله بن عمر، وابن عباس وغيرهم ، تأخر إسلامه، فلم يشهد بدرا، وشهد أحدا وما بعدها من المشاهد، وآخى رسول الله - صلي الله عليه وسلم – بينه وبين سلمان الفارسي وتوفي قبل عثمان بسنتين ، والأصح، والأشهر، والأكثر عند أهل العلم أنه توفي في خلافة عثمان. // أسد الغابة في معرفة الصحابة : لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود ، الناشر: دار الكتب العلمية ، الطبعة: الأولى ، سنة النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م .

(٤) صحيح مسلم: باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، حديث ٢٧٣٢ ، ٤ / ٢٠٩٤ .

(٥) سورة هود: الآية (٤٧)

(٦) سورة هود: الآية (٤٨)

(٧) سورة نوح: الآية (٢٨)

دعاء إبراهيم – عليه السلام:

قد ورد دعاء إبراهيم – عليه السلام – بطلب المغفرة وذلك في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول:

قوله- تعالى -: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [1].

هذه الدعوة لا تختلف كثيرا عن سابقتها، فبعدما تضرع الخليل إبراهيم – عليه السلام – بدعوات كثيرة ، تهدف إلي بناء المجتمع بالأمن والأمان، وإقامة الصلاة، ودعوة المسلمين لزيارة بيته الحرام، وتضرعه لربه بجلب الأرزاق لهم، واعترافه بثنائه الجميل، بنعمة ربه العظيمة، بأن وهبه الذرية الصالحة، ثم ختم – عليه السلام – هذه الدعوات الطيبات بأهم ما يسأل العبد ربه وهو طلب المغفرة له ولجميع المؤمنين .

فقوله- تعالى -: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ﴾ أي: ما فرط مني مما لا يسلم منه البشر [2].

وخصَّ نفسه بالدعاء أولا، لأنه من سنن الدعاء وآدابه، وذلك بأن يبدأ الداعي بنفسه، وهذا ما أُمِرَ به النبي – صلى الله عليه وسلم – في قوله تعالي: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [3].

ووجه الدلالة من الآية واضح، حيث أمره الله رب العالمين بأن يبدأ بنفسه- صلى الله عليه وسلم - في طلب المغفرة ثم للمؤمنين، اقتداء بأبيه إبراهيم – عليه السلام -

ويأتي الأمر مؤكداً منه – صلى الله عليه وسلم – في حديثه عن أبي بن كعب، " أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا ذكر أحدا فدعا له بدأ بنفسه " [4].

وهنا يأتي سؤال مهم، هل يتوقف طلب المغفرة على وقوع الذنب ؟

فلا يُعفى الرسول أيّ رسول من الحذر وطلب المغفرة، وها هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يقول: إني أستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة " [5]. فطلب المغفرة من الله إن لم يكن لذنب كما في حال الرسل المعصومين فهو من الأدب مع الله؛ لأن الخالق- سبحانه وتعالى - يستحق منا فوق ما كلفنا به، فإذا لم نقدر على المندوبات وعلى التطوعات؛ فلندع الحق- سبحانه - أن يغفر لنا، ومنا من لا يقدر على الفرائض؛ فليدع الله أن يغفر له .

فهو من باب الالتجاء إلى الله، وقطع الطمع إلا من فضل الله- تعالى - وكرمه [6].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء [7].

دعا لهما بالمغفرة لعظم حقهما عليه كما قال- تعالى -: ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [8]. فالدعاء للوالدين وتخصيصهما بطلب المغفرة والرحمة واجب يحتمه الشرع ويقره العرف .

وهذا الاستغفار منه - عليه السلام - كان قبل أن يتبين أن أباه عدو لله [9] فلما تبين له ذلك تبرأ منه، كما حكي القرآن الكريم في قوله- تعالى -: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [10].

---

(1) سورة إبراهيم الآية (٤١)

(2)تفسير أبي السعود: ٥ / ٥٤

(3) سورة محمد: من الآية (١٩)

(4) سنن الترمذي: باب ما جاء أن الداعي يبدأ بنفسه ، حديث ٣٣٨٥ ، ٥ / ٤٦٣ ، مسند أحمد: حديث ٢١١٢٦ ، ٣٥ / ٦٤ .

(1) المعجم الأوسط: للطبراني ٣ / ٢٨٨

(2) ينظر: تفسير الشعراوي: ١٢ / ٧٥٨٥ ، اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص ١١ / ٣٩٢ .

(3) أبو السعود: ٥ / ٥٤ ، فتح القدير: للشوكاني ٣ / ١٣٦ ، الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي ٩ /٣٧٥ ، الكشاف: للزمخشري ٥ / ٥٦٢ .

(4) سورة الإسراء: من الآية (٢٤)

(5) قال به أكثر المفسرين منهم: الطبري: ١٧ / ٢٨ ، القرطبي: ٩ /٣٧٥ ، الشوكاني: ٣ / ١٣٦ ، ابن جزي: ١ / ٤١٣ ، ابن كثير: ٤ / ٥١٤ ، أبو السعود: ٥ / ٥٤ ، الجزائري: ٣ / ٦١ ، الجلالين: ٣٣٦ ، الطنطاوي: ٧ / ٥٧١ .

(6) سورة التوبة: من الآية (١١٤)

وقوله- تعالى -: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أو لم يكن منهم . وقيل: أراد المؤمنين من ذريته فقط والأول أولى .

وقوله- تعالى -: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجزيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر [1].

وقيل: معنى (يقوم الحساب) أي: يثبت .

واستعير القيام للثبوت تبعا لتشبيه الحساب بإنسان قائم، لأن حالة القيام أقوى أحوال الإنسان إذ هو انتصاب للعمل. ومنه قولهم: قامت الحرب على ساق، إذا قويت واشتدت [2].

فبعدما تضرع الخليل إبراهيم – عليه السلام – بهذه الدعوات [3] الطيبات، والتي ختمت بهذا الدعاء العظيم ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [4].

قال المفسرون: [5] فاستجاب الله له في ذلك كله إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعده إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

وتأتي البشارة من النبي – صلى الله عليه وسلم – بشأن هذه الدعوة معلناً، أن دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، فعن أبي الدرداء- رضي الله عنه – : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم – قال: " دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثله " [6].

وهنا تتجلى بعض فوائد [7] هذه الدعوة وهي كما يلي:

١- أهمية سؤال الله المغفرة لأن عليها السلامة والفلاح في الدنيا والآخرة، حيث خص سؤالها خليل الرحمن في دعائه، وذكرها لنا ربنا لنقتدي به .

٢- ينبغي للداعي أن يجعل نصيبا في دعائه لوالديه؛ لأنه من كسبهما؛ ولعظيم فضلهما عليه .

٣- ينبغي للداعي أن يكون له حظ من دعواته لإخوانه المؤمنين .

٤- ينبغي للداعي أن يكون أكثر دعائه في أمور الآخرة .

٥- عظم الثواب المترتب على هذه الدعوة الطيبة المباركة، وذلك من خلال ما يلي:

أ- كونها ذكرت في كتاب الله، قرآنا يتلى إلى يوم القيامة .

ب- عظم أجرها، فإن الداعي ينال بدعائه للمؤمنين بكل مؤمن ومؤمنة حسنة، والحسنة بعشر أمثالها .

جـ- أنها دعوة من خليل الرحمن، والله جل وعلا لا يرد دعوة خليله .

د- أنها دعوة مستجابة، فإن دعوة المرء المسلم لأخيه المسلم بالغيب مستجابة كما تقدم .

---

(1) تفسير القرآن العظيم: لابن الكثير ٤ / ٥١٤ .

(2) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٣ / ٢٤٥ ، الكشاف: للزمخشري: ٢ / ٥٦٢ .

(3) التي ذكرت في سورة إبراهيم، وذلك من الآية ٣٥ – ٤١ .

(4) سورة إبراهيم الآية (٤١)

(5) ابن كثير: ٤ / ٥١٤ ، السعدي: ٤٢٧ ، الطنطاوي: ٧ / ٥٦٣ .

(6) صحيح مسلم: باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، حديث ٢٧٣٢ ، ٤ / ٢٠٩٤ .

(7) شرح الدعاء من الكتاب والسنة: لأبي عبد الرحمن ماهر بن عبد الحميد بن مقدم ، ١٩٤ – ١٩٥، بتصرف

الموضع الثاني:

قوله- تعالى -: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [١].

فقوله- تعالى -: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي ﴾ أي: أرجو أن يغفر لي، وأطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع تواضعا لله- تعالى - ومباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة [٢].

وقوله- تعالى-: ﴿ خَطِيئَتِي ﴾ الخطيئة: الذنب. يقال: خطئ إذا أذنب، وقرئ (خطاياي) والخطيئة: بمعنى خطايا معروف في كلام العرب، فقوله – عز وجل –: (فاعترفوا بذنبهم) معناه بذنوبهم ، وكذا قوله (وأقيموا الصلاة) معناه الصلوات [٣].

وفي تعيين الخطيئة يقول مجاهد: يعني بخطيئته قوله:(بل فعله كبيرهم هذا) وقوله:(إني سقيم) وقوله: (إن سارة أختي) [٤].

وقيل: حمل الخطيئة على كلماته الثلاث (إني سقيم) (بل فعله كبيرهم) وقوله (إن سارة أختي) مما لا سبيل إليه لأنها مع كونها معاريض لا من قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار، ولكونها صدرت عنه - عليه الصلاة والسلام - بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه [٥].

ويمكن الجمع بين اختلاف أهل التأويل في المقصود بالخطيئة بقوله:

لا يُعفى الرسول أيّ رسول من الحذر وطلب المغفرة، فطلب المغفرة من الله إن لم يكن لذنب، فهو من الأدب مع الله؛ لأن الخالق- سبحانه - وتعالى يستحق منا فوق ما كلفنا به [٦].

وها هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم – يقول: " إني أستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة "[٧]. ويأمره الله – عز وجل- بالاستغفار في قوله- تعالى-: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [٨].

فاستغفار الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ليس موقوفاً على الذنب، ولكن تواضعاً لربهم وتعليماً لأممهم، فهو من باب الالتجاء إلى الله وقطع الطمع إلا من فضل الله- تعالى -وكرمه، فالعبد مهما كانت منزلته عند الله، فإنه مفتقر إلى الله بالتوبة والمغفرة .

ويؤكد الزجاج علي عصمة الأنبياء من الكبائر دون الصغائر بقوله: " الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة، لكن لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها " [٩].

وهذا ما ذهب إليه الجمهور أن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر .

وقيد الخليل – عليه السلام – المغفرة بيوم الدين مع أن المغفرة تكون في الدنيا، لأنه اليوم الذي يظهر فيه أثر العفو [١٠].

وخصَّ يوم الدين دون غيره من أسماء يوم القيامة، لاستحضار أهمية هذا المطلب في ذلك اليوم الذي يكون فيه العبد أحوج ما يكون إلى مغفرة الرب العظيم؛ فإن يوم الدين يوم الجزاء والحساب على الأعمال [١١]

---

(٢) سورة الشعراء: الآية (٨٢)

(٣) تفسير الجلالين: ٤٨٥ ، التحرير والتنوير: ١٩ / ١٤٣ .

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣ / ١١١ – ١١٢، فتح البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب ٩ /٣٩٠.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: ١٩ / ٣٦٤ ،الجامع لأحكام القرآن: ١٣ / ١١٢، فتح البيان في مقاصد القرآن: ٩ / ٣٩٠ .

(٣) تفسير أبي السعود: ٦ / ٢٤٩ ، فتح البيان في مقاصد القرآن: ٩ / ٣٩١ .

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي: ١٢ / ٧٥٨٥ .

(٥) المعجم الأوسط: للطبراني ٣ / ٢٨٨ .

(٦) سورة محمد: من الآية (١٩)

(١) معاني القرآن وإعرابه: للزجاج ، ٤ / ٩٤ .

(٢) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٩ / ١٤٣ ، بتصرف .

(٣) ينظر: شرح الدعاء من الكتاب والسنة: لأبي عبد الرحمن ماهر بن عبد الحميد بن مقدم ، ٥٦٠ – ٥٦١ .

الموضع الثالث:

قوله- تعالى -: ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

فقوله- تعالى -: ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

قال ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيسبوننا ويعذبوننا .

وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم أو بعذاب من عندك، فيظنوا أنهم محقون وأنا مبطلون، فيفتنوا لذلك .

وقول ابن عباس أرجح لأنه دعاء لأنفسهم (٢).

والفتنة: اضطراب الحال وفساده، وهي اسم مصدر فتجيء بمعنى المصدر

كقوله- تعالى -: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ ﴾ (٣). وتجيء وصفا للمفتون والفاتن .

وقد تطلق الفتنة على ما يفضي إلى غرور في الدين كما في قوله- تعالى -: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (٤). (٥).

وقوله- تعالى -: ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ ما فرط منا، أعقبوا دعواتهم التي تعود إلى إصلاح دينهم في الحياة الدنيا بطلب ما يصلح أمورهم في الحياة الآخرة وما يوجب رضى الله عنهم في الدنيا فإن رضاه يفضي إلى عنايته بهم بتسيير أمورهم في الحياتين (٦).

وقوله- تعالى -: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه ولا يخيب رجاء من توكل عليه.

وقوله- تعالى -: ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ أي: الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة (٧).

والناظر في أسماء الله الحسنى يجد أن كل اسم يدل بمفرده على كمال خاص بذاته، ولكن اقتران العزيز بالحكيم هنا يدل على كمال آخر غير كمال كل اسم بمفرده، وذلك: أن عزته - جل وعلا - مقرونة بالحكمة، فلا تقتضي ظلما وجورا وسوءا، كما في المخلوقين قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم، وكذلك حكمه- تعالى - وحكمته مقرونة بالعز الكامل، بخلاف المخلوق، فإن حكمته قد يعتريها الذل .

ونلاحظ في الآية الكريمة أن النداء قد تكرر﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا ﴾ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، وذلك للمبالغة في التضرع والجؤار هذا

وفي هذه الدعوة فوائد كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- أهمية تقديم الأهم في الدعاء، كما جاء في سؤالهم العصمة، والنجاة من المفسدين لدينهم، وعقيدتهم .

٢- أهمية تكرير التوسل بربوبية الله- تعالى - المؤذن للإجابة، والقبول، والعناية، والحفظ؛ لأن ربوبية الله - عز وجل - ربوبيتان: عامة، وخاصة، فالعامة لجميع الخلائق، والخاصة لخواص خلقه من المؤمنين .

٣- ينبغي للداعي معرفة معاني أسماء الله الحسنى، وصفاته العلا حتى يتوسل بما يناسب مطلوبه .

٤- أهمية معرفة مسالك العلة التي جاءت في الكتاب والسنة حيث إنها تعين في معرفة معاني كتاب الله- تعالى -: وسنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ، وما حوي من الأدعية الكريمة، كما في هذه الآية، فقوله: (إنك أنت العزيز الحكيم) عللوا دعوتهم، أي ما دعوناك إلا لأنك أنت العزيز الذي تعز من تشاء، فنسألك من عزتك التي لا ترام أن تعزنا، وتنصرنا على هؤلاء الكفرة الفجرة ؛ ولأنك حكيم، فحكمتك تمنع أن تكون النصرة للكافرين على المؤمنين .

---

(٤) سورة الممتحنة: الآية (٥)

(٥) البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، ١٠/ ١٥٦ ، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت ، الطبعة: ١٤٢٠هـ

(٦) سورة البقرة: من الآية (١٩١)

(١) سورة الأنبياء: الآية (١١١)

(٢) التحرير والتنوير: لابن عاشور، ٢٨ / ١٤٧ .

(٣) السابق: ٢٨ / ١٤٨، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي ١٤ / ٢٦٧ .

(٥) السابق: ٨ / ٢٣٨ .

وممَّا سبق من ذكر دعاء إبراهيم – عليه السلام – يتضح:

أن إبراهيم – عليه السلام – كان متجهاً دائما إلى مقام الربوبية فكان يصدر دعائه دائما بقوله (رب) أو(ربنا) ولا يخفى علينا أهمية التوسل بالربوبية في إجابة الدعاء .

وفي هذا الدعاء بشارة عظيمة لجميع المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة لهم، فالله

– عز وجل – لا يرد دعاء خليله، وقد قال بعض العلماء في شأن هذا الدعاء وقد استجاب الله له دعائه كله إلا مغفرة لأبيه .

كما قدم الخليل – عليه السلام – أسمى مظاهر العبودية حيث طلب المغفرة وإن كان يعلم أنه مغفورٌ له، فالإنسان مهما قدم من الخير فهو دون ما يستحق الله - تعالى - من العبادة؛ لذلك كان طلب المغفرة من الطمع .

كما يتبين أنه – عليه السلام – يثبت ويقر عقيدة البعث والحساب والجزاء في قوله- تعالى -: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ وقوله- تعالى -: ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ وفيه ردٌّ على المنكرين لقضية البعث، وذلك أن أبا الأنبياء – عليه السلام – قد ذكر قبل هذا الدعاء ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (١). حيثيات الألوهية والتي منها:

قوله- تعالى -: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٢).

وقوله- تعالى -: ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (٣).

وقوله- تعالى -: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٤).

وقوله- تعالى -: ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ (٥).

فقد أقره وأثبته وأخبر به وأعلنه للبشرية، وذلك قبل مجيء النبي – صلى الله عليه وسلم – بآلاف السنين في قوله- تعالى -: ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ .

كما يلاحظ في دعائه – عليه السلام – أنه استعاذ بربه جلا وعلا من فتنة الدين، وذلك لأنها أكبر الفتن على الإطلاق، قال- تعالى -: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ ﴾ (٦). وقوله- تعالى -: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ ﴾ (٧).

وهذا رسولنا - صلى الله عليه وسلم – قد استعاذ أيضاً من هذه الفتنة، لأنها من أعظم الفتن على المرء فعن ابن عمر قال: قلما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم – يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: " ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا

كما يستحب أن نتضرع إلى الله – عز وجل – بهذه الدعوات الطيبة، اقتداء بالخليل – عليه السلام - ، وامتثالا لأمر الله- سبحانه- في قوله- تعالى-: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ [8] وقوله- تعالى- : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ [9].

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٨٢).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٧٨).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٧٩).

(٤) سورة الشعراء: الآية (٨٠).

(٥) سورة الشعراء: الآية (٨١).

(٦) سورة البقرة: من الآية (١٩١).

(٧) سورة البقرة: من الآية (٢١٧)

(٢) سورة آل عمران: من الآية (٩٥).

(٩) سورة النساء: من الآية (١٢٥).

دعاء يعقوب – عليه السلام :

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

سبب هذه الدعوة:

لما حصحص الحق وكشف الله – عز وجل – الحقائق ورفع الابتلاء عن يعقوب - عليه السلام -، وتبين الظلم الذي وقع على يوسف – عليه السلام – من إخوته، حينئذ اعترفوا بذنبهم وطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم قائلين: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (٢). فأجابهم قائلا: ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

فقوله- تعالى -: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي: قالوا في تذلل واستعطاف يا أبانا سل لنا ربك يعف عنا، ويستر علينا ذنوبنا التي أذنبناها فيك وفي يوسف، فلا يعاقبنا بها في القيامة، ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ فيما فعلنا به (٣). وهذه توبة واعتراف بالذنب، حيث سألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله .

وقوله- تعالى -: ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ أي: سوف أسأل ربي أن يعفو عن ذنوبكم التي أذنبتموها فيّ وفى يوسف (٤).

وقد اختلف أهل التأويل في الوقت الذي أخر فيه يعقوب -عليه السلام – الدعاء بالاستغفار لولده وذلك على أقوال عدَّة (٥). وهي كما يلي:

الأول: قال ابن عباس - رضي الله عنهما-: أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر، وهو الوقت الذي يقول الله فيه: (هل من داع فأستجيب له) .

الثاني: وهي رواية أخرى عن ابن عباس - رضي الله عنهما- : أنه أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة ؛ لأنها أوفق الأوقات لرجاء الإجابة .

الثالث: أخر الاستغفار ليعلم هل تابوا حقيقة أم لا؟ وهل أخلصوا في التوبة أم لا؟ .

الرابع: وقيل: سألوه أن يستغفر لهم دائماً، فلذلك قال: (سَوْفَ) .

الخامس: أخره حتى يسأل يوسف - عليه السلام - فإن عفا عنهم استغفر لهم .

السادس: أخره حتى يستأذن ربه- تعالى - في الاستغفار لهم فيأذن- سبحانه - .

السابع: وعدهم الاستغفار لأنه لم يفرغ بعد من استبشاره إلى استغفاره .

الثامن: أنه استغفر لهم في الحال بدلالة الْفَحْوَى [٦]. ولكنه أراد أن ينبههم إلى عظم الذنب وعظمة الله- تعالى - وأنه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلة .

---

(١) سورة يوسف: الآية (٩٨).

(٢) سورة يوسف: الآية (٩٧).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: للطبري ، ١٦ / ٢٦١ ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: للطنطاوي ، ٧ /٤١٥

(٤) السابق: ١٦ / ٢٦١ .

(٥) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: للطبري ، ١٦ / ٢٦١ – ٢٦٣ ، اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص ١١ / ٢١١ ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي ، ٧ / ٥٣ ، ٧٨ ، التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٣ / ٥٤ ، النكت في القرآن الكريم(في معاني القرآن الكريم وإعرابه) لعلي بن فَضَّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني، أبي الحسن (٤٧٩هـ) ١ / ٢٦٨ ، دراسة وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

(٦) فحوى الخطاب هو: ما كان المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به، وقيل: إن الفحوى: ما نبه عليه اللفظ // المهذب في علم أصول الفقه المقارن: لعبد الكريم بن علي بن محمد النملة ، ٤ / ١٧٤٥ ، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض ، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

وقوله- تعالى -: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [1]. أي: إن ربي هو الساتر على ذنوب التائبين إليه من ذنوبهم (الرحيم) بهم أن يعذبهم بعد توبتهم منها [2].

وجملة (إنه هو الغفور الرحيم) في موضع التعليل لجملة (أستغفر لكم ربي)، وأكد بضمير الفصل لتقوية الخبر [3].

وبناء على ما سبق فإن القرآن الكريم لم يصرح بوقت استغفار يعقوب – عليه السلام – لأبنائه، ولكنه – عليه السلام – وعدهم بالاستغفار ووعد الأنبياء حق لا يخلف، فهم خير من قاموا بإنفاذ الوعد .

وها هو الخليل–عليه السلام– قد وعد أباه بالاستغفار وذلك كما حكى القرآن عنه في قوله- تعالى-: ﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [4].

وقد وَفَّى بوعده كما أخبر القرآن الكريم عنه في قوله- تعالى -: ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنْ الضَّالِّينَ ﴾ [5]. وقوله- تعالى -: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [6].

ولا شك أن يعقوب – عليه السلام – بر بوعده لأبنائه فاستغفر الله لهم؛ وأن الله- تعالى - استجاب دعوته فغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم، فالله – عز وجل – أخبرنا أنه يغفر أي ذنب ما خلا الإشراك به- سبحانه - حيث قال جل شأنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٧).

ويستفاد من استغفار يعقوب – عليه السلام – لأبنائه:

صحة مشروعية طلب الدعاء من الغير أي: مشروعية توسل المؤمن بدعاء أخيه المؤمن له .

ويدل على ذلك ما رواه عمر – رضي الله عنه – قال: استأذنت النبي – صلى الله عليه وسلم – في العمرة، فأذن لي، وقال: " لا تنسنا يا أخي من دعائك "، فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا (٨) .

كما تدل خاتمة الآية الكريمة (إنه هو الغفور الرحيم) على مدى سعة رحمة الله ولطفه بعباده، وأنه- سبحانه - يقبل التوبة من التائبين إليه، ويغفر ذنوب المذنبين .

كما يتبين أنه ليس قدح في أبناء يعقوب – عليه السلام – أنهم قد ارتكبوا الذنوب، ولكن القدح في الإصرار على الذنوب، فالمتتبع لآيات الذكر الحكيم يجد أن الله- تعالى - قد امتدح المؤمنين المتقين الذين يسارعون في طلب المغفرة بعد وقوع الذنب منهم كما صور لنا القرآن الكريم حالهم في قوله -جل شأنه-: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٩) .

---

(٢) سورة يوسف: من الآية (٩٨).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: للطبري ، ١٦ / ٢٦٣ .

(٤) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٣ / ٥٤ .

(٥) سورة مريم: الآية (٤٧).

(١) سورة الشعراء: الآية (٨٦).

(٢) سورة إبراهيم الآية (٤١).

(٣) سورة النساء: من الآية (٤٨).

(٤) سنن أبي داود: حديث، ١٤٩٨ ، باب الدعاء، ٢ / ٨٠ .

(١) سورة آل عمران: الآية (١٣٥)

وقوله- تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ (١). وقوله- تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٢).

فالإصرار على الذنب نقص في الإيمان، وليس وقوع الذنب قدح في الإيمان لقوله – صلى الله عليه وسلم – " كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون " (٣).

وهذا ما أقره ابن تيمية أن المذنب " إن كان قد عمل سيئات ولم يتب منها فهذا ناقص " (٤).

ويؤكد الرازي أن وقوع الذنب من العبد ليس قدحاً في إيمانه، ولكن " المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط في استحقاق المنزلة والكرامة عند الله " (٥).

دعاء يوسف – عليه السلام :

﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦).

سبب هذه الدعوة:

عندما اعترف إخوة يوسف – عليه السلام – بالذنب وندموا على ما فعلوا بيوسف وأبيهم، كما حكى القرآن عنهم في قوله -جل شأنه-: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (٧). أجابهم يوسف – عليه السلام – بكرمه وعفوه قائلاً: ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

فقوله- تعالى -: ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ﴾ أي: لا تعيير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو (٨). ومنه قوله -عليه الصلاة والسلام- : إذا زنت أمة أحدكم، فتبين زناها، فليحدها الحد ولا يثرب عليها " (٩). أي: ولا يعيرها بالزنا (١٠).

وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش. ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد

وقد اختلف المفسرون في متعلق قوله (اليوم) وذلك على قولين: .

الأول: إنه متعلق بقوله: لا تثريب أي لا أثر بكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بسائر الأيام، وفيه احتمال آخر وهو أني حكمت في هذا اليوم بأن لا تثريب مطلقا لأن قوله: لا تثريب نفي للماهية ونفي الماهية يقتضي انتفاء جميع أفراد الماهية، فكان ذلك مفيدا للنفي المتناول لكل الأوقات والأحوال فتقدير الكلام اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الأوقات والأحوال .

---

(٢) سورة البقرة: من الآية (٢٢٢)

(٣) سورة النساء: الآية (١١٠)

(٤) سنن ابن ماجه : باب ذكر التوبة ، حديث، ٤٢٥١ ، ٢ / ١٤٢٠ .

(٥) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: لشمس الدين، ٢ / ٥٨٩ .

(٦) مفاتيح الغيب: للرازي، ٩ / ٣٦٨ .

(١) سورة يوسف: الآية (٩٢) .

(٢) سورة يوسف: الآية (٩١) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: ١٦ / ٢٤٧ .

(٤) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم: لابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (ت: ٨٤٠هـ)، ٩ / ٢٩١ . حققه وضبط نصه، وخرج أحاديثه، وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .

(٥) مفاتيح الغيب: ١٨ / ٥٠٦ .

الثاني: متعلق بقوله : يغفر الله لكم كأنه لما نفى التثريب مطلقا بشرهم بأن الله غفر ذنبهم في هذا اليوم، وذلك لأنهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فالله قبل توبتهم وغفر ذنبهم، فلذلك قال: (اليوم يغفر الله لكم) .

وفي كلا الأمرين توجد الفائدة: فإن كان (اليوم) متعلقاً بقوله (لا تثريب)، ففيه نهاية الإحسان، حيث ظلموه ظلماً عظيمًا، ولكن عفى عنهم دون تأنيب ولا تعيير ولا توبيخ .

وإن كان (اليوم) متعلقاً بقوله (يغفر الله لكم)، ففيه بشارة عظيمة بعاجل غفران الله لهم .

وقوله- تعالى -: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [١]. دعا لهم بمغفرة ما فرط منهم. يقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعا. ومنه قول المشمت (يهديكم الله ويصلح بالكم) [٢].

وجملة (يغفر الله لكم) جملة خبرية أريد منها الدعاء لهم بأن يغفر الله لهم، وفي استخدام الخبر في الدعاء معنى التفاؤل باستجابة الله الدعاء وتحققه في الواقع حتى يكون خبراً، وكان من دعاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه (غفر الله له) بأسلوب الخبر، والمعنى: اللهم اغفر له (٣).

وهنا يأتي سؤال مهم لماذا أسرع يوسف – عليه السلام – في الاستغفار لإخوته فقال (يغفر الله لكم)، ووعدهم يعقوب – عليه السلام – بالاستغفار فقال : (سوف أستغفر لكم ربي) ؟

المسألة هنا تتعلق بحقوق العباد، والتوبة من مظالم الناس تحتاج إلى تنازل صاحب الحق عن حقه، ويوسف هو صاحب الحق، فلابد أن يستأذنه أبوه، لذلك قال لهم أبوهم (سوف أستغفر لكم ربي) بعد أن يتنازل يوسف عن حقه .

أما يوسف فقال لهم (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) لأن يوسف هو صاحب الحق، وقد تنازل [٤].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [٥]. أي: لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته

وهو فهم لحقيقة أن أي رحمة في العالم، أو من أي أحد إنما هي مستمدة من رحمته –سبحانه-. وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته، لأنه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفا عنهم؛ والله أولى منه بالعفو عنهم

ومن خلال النظر في دعاء يوسف – عليه السلام - لإخوته يتبين لنا:

أنه ضرب لنا أروع الأمثلة في العفو والصفح، فقد ظلموه ظلماً عظيما، ولكن قد عفى عنهم دون تأنيب ولا تعيير ولا توبيخ على ما قد مضى، وهذا غاية الإحسان، فالعفو هو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح هو ترك التثريب .

وقد حضَّ الله - عز وجل – على العفو والصفح وأمر بهما في آيات من الذكر الحكيم نذكر منها ما يلي:

١- قوله- تعالى -: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

٢- قوله- تعالى -: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٦].

٣- قوله- تعالى -: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [٧].

---

(٢) سورة يوسف: من الآية (٩٢) .

(٣) الكشاف: ٢ / ٥٠٣ .

(٤) البلاغة العربية: لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ) ١ / ١٧٧ – ١٧٨ ، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية- بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

(١) تربية القرآن يا ولدي: لمحمود محمد غريب: من علماء الأزهر الشريف ، ١ / ١٣٥ – ١٣٦ ، الناشر: مطبعة الشعب – بغداد الطبعة: الأولى - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

(٢) سورة يوسف: من الآية (٩٢) .

(٢) سورة النور: الآية (٢٢).

(٣) سورة فصلت: الآية (٣٤).

٤- قوله- تعالى-: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [١].

٥- قوله- تعالى -: ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٢].

هذا وقد أمر الله – عز وجل – نبيه محمداً – صلى الله عليه وسلم – بالعفو وطلب المغفرة لأصحابه ولأمته، فقال جل شأنه: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [٣].

وقوله- تعالى -: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٤].

كما تضافرت الأحاديث النبوية على فضل العفو والصفح والحث عليهما ولعل من أهمها ما يلي:

١- عن أنس- رضي الله عنه – " أن يهودية أتت النبي – صلى الله عليه وسلم- بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل ألا نقتلها؟ قال: (لا) قال: فما زلت أعرفها في لهوات [٥] رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " [٦].

٢- عن أم سلمة - رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–"ما نقص مال من صدقة، ولا عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزا فاعفوا يعزكم الله- تعالى - " (٧).

٣- عن أبي هريرة - رضي الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " سأل موسى ربه قال رب أي عبادك أتقى قال الذي يذكر الله- تعالى - فلا ينسى قال فأي عبادك أعز قال الذي إذا قدر عفا " (٨).

٤- عن ابن عمر- رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم " (٩).

٥- عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: لما قسم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- غنائم حنين بالجعرانة (١٠) ازدحموا عليه فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: إن عبدا من عباد الله بعثه الله إلى قوم فكذبوه وشجوه، فكان يمسح الدم عن جبهته ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " (١١).

٦- عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أدعو؟ قال: " تقولين: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني " (١٢).

---

(٤) سورة الشورى: من الآية (٤٠).

(٥) سورة التغابن: من الآية (١٤).

(٦) سورة آل عمران: من الآية (١٥٩).

(٧) سورة المائدة: من الآية (١٣).

(٨) لهوات : جمع لهاة وهي اللحمة الحمراء المعلقة في أصل الحنك في أقصى سقف الفم مشرفة على الحلق . ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢٨٤/٤ .

(٩) الأدب المفرد بالتعليقات: للبخاري، حديث، ٢٤٣ ، ١ / ١٢٨ ، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري ، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .

(١) المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها: لأبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (ت: ٣٢٧هـ) حديث، ١٦٨، ١ / ٨٣ ، انتقاء: أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدير، الناشر: دار الفكر - دمشق سورية ، سنة النشر:١٤٠٦ هـ .

(٢) السابق: حديث، ١٦٩، ١ / ٨٤ .

(٣) سنن ابن ماجه: حديث، ٤٠٣٢، ٢ / ١٣٣٨ .

(٤) هي ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبي- صلى الله عليه وسلم – لما قسم غنائم هوازن مرجعه من غزاة حنين وأحرم منها، – صلى الله عليه وسلم – وله فيها مسجد// معجم البلدان: لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، ٢ / ١٤٢ ، الناشر: دار صادر- بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م .

(٥) الأدب المفرد بالتعليقات: للبخاري، حديث، ٧٥٧ ، ١ / ٤٠٤- ٤٠٥ .

(٦) سنن ابن ماجه: باب الدعاء بالعفو والعافية ، حديث، ٣٨٥٠ ، ٢ / ١٢٦٥ .

وبعد ذكر هذه الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية نلاحظ أنها تقرر بعض الأمور الثابتة وهي:

١- أن الله – عز وجل - عفو يحب العفو وأهله .

٢- أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قدوة لأمته في العفو والصفح، فعفوه يشمل المسلم وغيره .

٣- أن عظمة العفو تتمثل عند المقدرة .

٤- أن الثواب العظيم هو الذي أعده الله – عز وجل- لأهل العفو في الدنيا والآخرة.

٥- أن العبد ينال مغفرة ربه بالعفو والصبر على أذى الناس .

دعاء موسى – عليه السلام :

قد ورد ذكر دعاء موسى – عليه السلام – بطلب المغفرة في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول:

قوله- تعالى - : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [١] .

سبب هذه الدعوة:

أن موسى – عليه السلام – قد ظن أن أخاه هارون قد قصر في نصح بني إسرائيل وزجرهم عن عبادة العجل، ولكن قد تبين لموسى- عليه السلام- أن أخاه هارون لم يقصر في نصحهم وزجرهم عن عبادة العجل كما حكى القرآن الكريم ذلك في قوله- تعالى -: ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٢].

فلما ظهر لموسى براءة أخيه هارون – عليهما السلام – من مغبة التقصير توجه إلى ربه – سبحانه - متضرعا بطلب المغفرة لهما قائلا: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [٣] .

فقوله- تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي ﴾ أي: اغفر لي ما أغلظت عليه به من قول وفعل، واغفر له ما عساه قصر فيه من مؤاخذة القوم [٤].

وقد اختلف المفسرون في سبب استغفار موسى – عليه السلام – إلى عدَّة أقوال:[٥] .

الأول: لما اعتذر إليه أخوه وذكر شماتة الأعداء، قال: رب اغفر لي ولأخي ليرضي أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا يتم لهم شماتتهم .

الثاني: استغفاره لنفسه بسبب فعلته مع أخيه وعجلته في إلقاء الألواح واستغفاره لأخيه من فعلته في الصبر لبني إسرائيل .

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥١) .

(٢) سورة الأعراف: من الآية (١٥٠) .

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥١) .

(٤) تفسير المنار: لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني(ت: ١٣٥٤هـ)، ٩/ ١٨٠ ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م .

(٥) البحر المحيط: لأبي حيان ، ٥ / ١٨٤ ، الكشاف: ٢ / ١٦٢ .

الثالث: ويمكن أن يكون الاستغفار مما لا يعلمه :

والأول أقرب إلى الصواب يدل عليه السياق القرآني في قوله- تعالى -:

﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [1].

فقوله (قال رب اغفر لي ولأخي) " كلام مستأنف، جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال موسى بعد كلام هارون هذا؟ فقيل: قال رب اغفر لي ولأخي" [2].

وذكر وصف الإخوة زيادة في الاستعطاف عسى الله أن يكرم رسوله بالمغفرة لأخيه [3].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ [4]. بمزيد الإنعام بعد غفران ما سلف منا [5].

والإدخال في الرحمة استعارة لشمول الرحمة لهما في سائر أحوالهما، بحيث يكونان منها، كالمستقر في بيت أو نحوه مما يحوي، وهو أبلغ من (وارحمنا) [6].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [7]. أي: أرحم بعبادك من كل راحم [8].

وهذا الثناء يدل على مزيد الثقة في الرجاء [9].

الموضع الثاني: قوله- تعالى -: ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (١٠).

سبب هذه الدعوة:

لما أوحى الله - سبحانه - إلى موسى – عليه السلام – أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل للميقات الذي وقته الله- تعالى - وقد فعل وأتى بهم للميقات كما سجل القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ﴾ (١١). فلما أتوا ذلك المكان قالوا:(لن نؤمن لك) يا موسى (حتى نرى الله جهرة) فعند ذلك أخذتهم الرجفة، فقام موسى – عليه السلام – يعتذر إلى ربه قائلا: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ (١٢). ثم طلب موسى - عليه السلام – المغفرة والرحمة له ولقومه مما حدث منهم قائلا: ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾.

فقوله- تعالى -: ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا ﴾ أي: أنت المتولي لأمورنا، والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا(١٣). والولي هو: الذي له ولاية على أحد (١٤).

وصدر الدعاء بقوله (أنت ولينا) للاعتراف بالانقطاع لعبادة الله- تعالى- تمهيدا لمطلب المغفرة والرحمة؛ لأن شأن الولي أن يرحم مولاه وينصره (١٥) .

([1]) سورة الأعراف: من الآية (١٥٠) .

([2]) فتح القدير: ٢ / ٢٨٤ ، تفسير أبي السعود: ٣ / ٢٧٥ .

([3]) التحرير والتنوير: ٩ / ١١٨ .

([4]) سورة الأعراف: من الآية (١٥١) .

([5]) تفسير أبي السعود: ٣ / ٢٧٥ .

([6]) التحرير والتنوير: ٩ / ١١٨ ، تفسير المنار: ٩/ ١٨٠

([7]) سورة الأعراف: من الآية (١٥١) .

([8]) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ٥ / ٣٨٤ .

([9]) تفسير المنار: ٩/ ١٨٠

([1]) سورة الأعراف : من الآية (١٥٥) .

([2]) السابق : الآية نفسها.

([3]) نفسه .

([4]) تفسير المنار: ٩/ ١٨٩.

([5]) التحرير والتنوير: ٩ / ١٢٧ ، بتصرف .

([15]) السابق .

وقوله: ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا ﴾ يفيد الحصر، ومعناه أنه لا ولي لنا ولا ناصر ولا هادي إلا أنت(١).

وقوله- تعالى -: ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ أي: فاغفر لنا ما فرط منا، وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء [٢].

وقدم المغفرة على الرحمة لأن المغفرة سبب لرحمات كثيرة، فإن المغفرة تنهية لغضب الله المترتب على الذنب، فإذا انتهى الغضب تسنى أن يخلفه الرضا. والرضا يقتضي الإحسان، فهو من باب (درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة)، فقدم موسى - عليه السلام - طلب غفر الذنب، وهذا درء مفسدة، ثم طلب ودعا ربه أن يرحمهم، وهذا جلب منفعة. وقد قال ربنا في مجال درء المفسدة: (فمن زحزح عن النار) وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار (وأدخل الجنة) . وهذا جلب منفعة ومصلحة [٣].

والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقع العبد في مثل الذنب في المستقبل [٤].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (٥).أي الساتر ذنوب العباد، العافي عن السيئات، ورحمتك وسعت كل شيء، ومغفرتك ورحمتك بلا سبب ولا علة ولا لمصلحة ولا لعوض، أما غيرك فإنما يغفر لأغراض عديدة كحب الثناء وطلب النفع أو لدفع الضرر، وأنت تغفر لمحض الفضل والجود والكرم، فهو حقا وقطعا خير الغافرين (٦).

الموضع الثالث:

قوله- تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٧).

سبب هذه الدعوة:

أن موسى – عليه السلام – لما دخل المدينة وكانت مصر - على أرجح الأقوال - وجد فيها رجلين يتنازعان وكان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من قوم فرعون، فاستغاثه الذي من شيعته وطلب منه النصر، بأن يرفع عنه الظلم، فضربه موسى – عليه السلام – فمات هذا القبطي، ولم يُرِد موسى – عليه السلام – قتله ولكن وافقت وَكْزَتُهُ الأَجَلَ فكان القتل خطأ، لذلك نسب موسى– عليه السلام – هذا الفعل الخطأ للشيطان حيث قال: (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) ولما تبين لموسى – عليه السلام – أنه أخطأ بفعله هذا توجه إلى ربه معترفا بذنبه ومتضرعا بطلب المغفرة قائلا: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾.

([١]) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ)، ٣ / ٣٢٧ ، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى- ١٤١٦ هـ مفاتيح الغيب: ١٥ / ٣٧٨ .

([٢]) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: للطنطاوي ، ٥ / ٣٨٨ .

([٢]) التحرير والتنوير: ٩ / ١٢٧ ، مفاتيح الغيب: ١٥ / ٣٧٨ ، تفسير الشعراوي: ٧ / ٤٣٧٧ .

([٣]) مختصر تفسير ابن كثير: لمحمد علي الصابوني ٢ / ٥٤ ، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م

([٤]) سورة الأعراف: من الآية (١٥٥) .

([٥]) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج : د وهبة بن مصطفى الزحيلي ٩ / ١١٤ ، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ ، تفسير المنار: ٩/ ١٨٩.

([١]) سورة القصص: الآية (١٦).

فقوله- تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ يعني: بقتل القبطي من غير أمر (١).

وسمى فعله ظلما لنفسه لأنه كان من أثر فرط الغضب لأجل رجل من شيعته، وكان يستطيع أن يملك من غضبه فكان تعجيله بوكز القبطي وكزة قاتلة ظلما جره لنفسه [٢].

وقد اختلف المفسرون في وجه استغفار موسى – عليه السلام – إلى عدَّة أقوال: (٣).

الأول: أنه لم يكن لنبي أن يقتل حتى يؤمر.

الثاني: أنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين.

الثالث: هو على سبيل التواضع لله- تعالى - والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه. وإن لم يكن هناك ذنب فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

هذه هي أقوال العلماء في وجه الاستغفار، ولكن يبدو أنها مجانبة للصواب؛ لأن موسى – عليه السلام – ندم على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه، فالاستغفار غالبا يكون بعد وقوع الذنب.

وفي هذا يقول الشوكاني " وكل هذه التأويلات البعيدة، محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء، ولا شك أنهم معصومون من الكبائر" [٤].

وقوله- تعالى -: ﴿ فَاغْفِرْ لِي ﴾ [٥] أي: ذنبي [٦].

وقوله- تعالى -: ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ [٧] الفاء للتعقيب، أي استجاب استغفاره فعجل له بالمغفرة [٨].

وقوله- تعالى -: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المبالغ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم [٩].

وجملة (إنه هو الغفور الرحيم) تعليل لجملة (فغفر له) علل المغفرة له بأنه شديد الغفران ورحيم بعباده [١٠]

ومن ذكر ما سبق من دعاء موسى – عليه السلام – نلحظ:

أن من أعظم ما يتوسل به العبد التوسل بولاية الله – عز وجل – له وبصفة غفرانه – عز وجل – لذنوب عباده.

كما نلحظ في دعائه – عليه السلام – اتّصاله الوثيق بربه -جلا وعلا- في مختلف أوضاعه، ومناجاته لربه بصفاء روحه وسلامة فطرته في مختلف أحواله في سرائه وضرائه.

كما يتبين أن موسى – عليه السلام – لم يكتفِ بالاعتذار ولا الندم إليه سبحانه – ولكنه - عليه السلام – أسرع في طلب المغفرة والرحمة، فهذا هو شأن المؤمن دائما عند وقوع الذنب سرعان ما يرجع إلى ربه، وها هو القرآن الكريم يصور لنا حال المؤمن بعد وقوع الذنب في قوله- تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

([٢]) لباب التأويل في معاني التنزيل: لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ)، ٣ / ٣٦٠ ، تحقيق: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ .

([٣]) التحرير والتنوير: ٢٠ / ٩١ .

([١]) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، ١٣ / ٢٦١ ، فتح القدير: للشوكاني، ٤ / ١٨٩ ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب، ١٠ / ٩٩ .

([٢]) فتح القدير: للشوكاني، ٤ / ١٨٩ .

([٣]) سورة القصص: من الآية (١٦).

([٤]) تفسير أبي السعود: ٧ / ٧ .

([٥]) سورة القصص: من الآية (١٦).

([٦]) التحرير والتنوير: ٢٠ / ٩١ .

([٨]) تفسير أبي السعود: ٧ / ٧ .

([٩]) التحرير والتنوير: ٢٠ / ٩٢ .

فجاء التعبير بالفاء في قوله:(فاستغفروا) ليفيد التعقيب والسرعة أي: لا ينتظروا مهلة ليستغفروا فيها، ولكن سرعان ما يتوجه العبد إلى ربه معلناً فقره وعجزه إلى عفو ربه.

كما يتبين أن العبد مهما عظمت ذنوبه، ثم دعا الله – عز وجل - أن يغفر له فإن الله يغفرها مصداقاً لقوله- تعالى -: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [1]. فما على العبد إلا أن يطلب المغفرة، لأن الله لا يعذب مستغفراً غير مصرّ على ذنبه، فالله – عز وجل – قد خاطب نبيه – صلى الله عليه وسلم – قائلاً: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [2].

كما نلحظ أن دعاءه – عليه السلام – قد جمع بين الندم والاستغفار معاً في آية واحدة وجاء مقترناً بالإجابة في موضع واحد تمثل في قوله- تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [3].

كما يلاحظ في دعائه – عليه السلام – أنه بدأه بالثناء الجميل على الله- تعالى- قائلاً:﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا ﴾ ثم دعا قائلاً: ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ فالناظر في ثنايا القرآن يجد أن هذا منهج الأنبياء – عليهم السلام– حيث كانوا يقدمون الثناء الجميل على الله بما هو أهله ، تارة في أوله كما جاء على لسان يوسف– عليه السلام–﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٤). وتارة في وسطه كما جاء على لسان إبراهيم – عليه السلام – في قوله- تعالى -: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ (٥). وتارة في آخره كما جاء على لسان موسى - عليه السلام – في قوله- تعالى -: ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (٦).

---

[2] سورة النجم: من الآية (٣٢).

[3] سورة الأنفال: الآية (٣٣).

[4] سورة القصص: الآية (١٦).

[1] سورة يوسف: الآية (١٠١) .

[2] سورة إبراهيم: الآيات (٣٧- ٤٠) .

[3] سورة الأعراف: من الآية (١٥٥) .

<u>دعاء داود - عليه السلام :</u>

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [1].

سبب هذه الدعوة:

دخل خصمان على نبي الله داود وتسلقوا سور غرفته المخصصة للعبادة، فظن داود – عليه السلام – أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة، إنما هو لأجل الاعتداء عليه وأن ذلك لون من ابتلاء الله له وامتحانه لقوة إيمانه، ولكن لما لم يتحقق هذا الظن، وإنما تحقق القضاء بينهما، استغفر ربه من ذلك الظن طالباً المغفرة والرحمة، كما حكى القرآن الكريم عنه في قوله- تعالى -: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [2].

فقوله- تعالى -: ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ أي: من ذلك الظن إذ لم يقع ما كان قد ظنه [3].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ أي سقط على وجهه ساجدا لله [4].

وعبّر بالركوع عن السجود وذلك من عدَّة أوجه: [5].

الأول: وخر راكعا أي ساجدا على تسمية السجود ركوعا لأنه مبدؤه .

الثاني: خر للسجود راكعا أي مصليا كأنه أحرم بركعتي الاستغفار .

الثالث: لأن كل واحد منهما فيه انحناء .

الرابع: ذكر أول أحوال الخرور، أي راكعا ليسجد .

وعلى كل حال فإن اجتهاد العلماء في هذه الأوجه مقبول، ولكن مما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن داود – عليه السلام – توجه إلى الله – عز وجل – بكل تضرع وخشوع ساجداً لله طالباً عفوه وكرمه .

وقوله- تعالى -: ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أي: ورجع إلى الله بالتوبة [6].

وقد اختلف العلماء في السجدة التي في (ص) هل هي من عزائم السجود أم لا؟ وذلك علي عدَّة آراء: [7].

الأول: قال ابن عباس: سجدة ص ليست من عزائم السجود .

الثاني: مذهب أبي حنيفة أنها من عزائم سجود التلاوة واستدل بهذه الآية على أن الركوع يقوم مقام السجود في سجود التلاوة .

الثالث: مذهب الشافعي أنها ليست من عزائم سجود التلاوة قال: لأنها توبة نبي فلا توجب سجدة التلاوة .

ويمكن الجمع بين آراء العلماء في هذه المسألة هل السجدة في ص من عزائم السجود أم لا ؟

هذه السجدة ليست من عزائم السجود، ولكن نسجدها سنة عن النبي– صلى الله عليه وسلم- واقتداءً بنبي الله داود – عليه السلام – فقد ورد عن ابن عباس، أن النبي- صلى الله عليه وسلم- سجد في ص وقال: " سجدها داود توبة، ونسجدها شكرا " وقال مجاهد: قلت لابن عباس: أسجد في ص فقرأ (ومن ذريته داود وسليمان) حتى أتى (فبهداهم اقتده) فقال نبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم فسجدها داود فسجدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم – [8].

([1]) سورة ص: من الآية (٢٤).

([2]) السابق:

([3]) تفسير المراغي: ٢٣ / ١١٠.

([4]) تفسير النسفي: ٣ / ١٥٢.

([5]) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، ٥ / ٢٧ ، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ ، البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان: ٩ / ١٥٠ ، لباب التأويل في معاني التنزيل: للخازن ، ٤ / ٣٧ .

([1]) السابق

([2]) لباب التأويل في معاني التنزيل: للخازن ، ٤ / ٣٧ .

([4]) لباب التأويل في معاني التنزيل: للخازن ، ٤ / ٣٧ .

فدل حديث النبي- صلى الله عليه وسلم- وقول ابن عباس – رضي الله عنه - على أنها ليست من عزائم السجود، ولكنه – عليه السلام - فعلها لأجل التوبة والاستغفار.

ويأتي القرآن مبشراً داود – عليه السلام – بقبول التوبة والمغفرة في قوله – تعالى-:﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (١).

فقوله - تعالى -: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أي : فغفرنا له ذلك الظن الذي استغفر منه (٢).

وقوله- تعالى -: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ أي: لقربة منا ومكانة سامية (٣).

وقوله- تعالى-: ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي: وحسن مرجع في الآخرة وهو الجنة(٤).

ومن خلال النظر في دعاء داود – عليه السلام – يتبين لنا:

أن دعاءه – عليه السلام- تميز بفعله الخاص، حيث لم يكتفِ بالاستغفار ولكنه خر ساجداً لله- تعالى - نادماً على ما فرط منه ثم أناب، فالإنابة أخص من التوبة وهي من سمات الأنبياء، وعند إمعان النظر في استغفاره – عليه السلام- نجد أن استغفاره على الفور دلَّ على شدَّة اضطرابه وسرعة لجوئه إلى الله ؛ إذ أن الأنبياء كانوا يستشعرون عظم الذنب مهما كان صغره؛ لذا كان الاستغفار أدعى للسجود المشعر بالطمأنينة بعد الفزع، فكأن السجود كان تهيئة للدخول في الإنابة، وهذه الكيفية قد تميز بها نبي الله داود .

كما يستفاد من سجوده – عليه السلام – مدى قرب العبد من ربه وهو ساجد، وهذا مصداقاً لقول النبي - صلى الله عليه وسلم – " إن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء " (٥).

ويلاحظ أن الإجابة لم تتأخر ولكنها جاءت على الفور عقب دعائه – عليه السلام - .

كما حكي القرآن الكريم في قوله: ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [٦]. فجاءت الإجابة مباشرة ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [٧]. وهذا يدل على علو قدره ومنزلته عند ربه .

كما نلحظ أن القرآن الكريم لم يتوقف بيانه عن مغفرته لداود – عليه السلام- ولكنه أخبر عن مكانته ومنزلته عند ربه كما جاء في قوله- تعالى -: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

---

(١) سورة ص: الآية (٢٥).

(٢) التفسير الوسيط: للطنطاوي، ١٢ / ١٤٨ .

(٣) السابق .

(٤) نفسه .

(١) صحيح ابن حبان : لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، باب: ذكر الرغبة في الدعاء والسجود لقرب العبد ، حديث: ١٩٢٨ ، ٥ / ٢٥٤ ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣ .

(٢) سورة ص: من الآية (٢٤).

(٣) سورة ص: الآية (٢٥).

دعاء سليمان – عليه – السلام –

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾[1].

سبب هذه الدعوة:

قد وردت عدَّة أقوال (٢). في سبب هذه الآية، ولكن الذي ذهب إليه المحققون أن سبب فتنته – عليه السلام - ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " قال سليمان : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعا فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون " (٣).

فقوله- تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ أي: اغفر لي ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله [4].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ أي: لا يكون لأحد من بعدي، وقيل: لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة، وقيل: لا يصح لأحد من بعدي لعظمته (٥).

وقدم الاستغفار على طلب الملك، لأن أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا فقدم الأَوْلى والأهم، وقيل: جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته (٦).

قال الإمام الرازي: " دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم بعده طلب المملكة " (٧).

كما تدل أيضا على" أن طلب المغفرة من الله- تعالى - سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم توسل به إلى طلب المملكة " (٨).

فإن قيل: كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا مع ذمها من الله- تعالى - وبغضه لها، وحقارتها لديه؟

فالجواب: " ما طلب ذلك إلا من أجل خدمة دينه وإعلاء كلمة الله في الأرض، والتمكن من أداء الحقوق لأصحابها، ونشر العدالة بين الناس، وإنصاف المظلوم، وإعانة المحتاج. وتنفيذ شرع الله- تعالى- على الوجه الأكمل " (٩).

فهذا "محمول عند العلماء على أداء حقوق الله- تعالى - وسياسة ملكه، وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظهور عبادته، ولزوم طاعته " (١٠).

وقوله- تعالى -: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١١).أي فإنك كثير الهبات عظيم الموهبات .

وجملة (إنك أنت الوهاب) تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك (١٢).

---

(١) سورة ص: الآية (٣٥).

(٢) فتح القدير: للشوكاني، ٤ / ٤٩٦ – ٤٩٧ .

(٣) صحيح البخاري: باب: كيف كانت يمين النبي – صلي الله عليه وسلم - ، حديث:٦٦٣٩، ٨ / ١٣٠ .

(٤) فتح القدير: للشوكاني، ٤ / ٤٩٧ .

(٥) السابق .

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل: لابن جزي ، ٢ / ٢٠٩ ، فتح القدير: للشوكاني، ٤ / ٤٩٧ .

(١) مفاتيح الغيب: ٢٦ / ٣٩٤ .

(٢) السابق.

(٣) التفسير الوسيط: للطنطاوي، ١٢ / ١٦٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي ، ١٥ / ٢٠٤ .

(٥) سورة ص: من الآية (٣٥).

(٦) فتح القدير: للشوكاني، ٤ / ٤٩٧ .

ويخبر القرآن الكريم عن إجابته لدعوته – عليه السلام - وإعطائه لمسألته فقال:﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (١).

فقوله- تعالى-: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ أي: ذللناها له وجعلناها منقادة لأمره(٢).

وقوله- تعالى -: ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ أي: لينة الهبوب ليست بالعاصف، مأخوذ من الرخاوة، والمعنى أنها ريح لينة لا تزعزع ولا تعصف مع قوة هبوبها وسرعة جريها (٣).

ولا ينافي هذا قوله في آية أخرى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ (٤) لأن المراد أنها في قوة العاصفة ولا تعصف. وقيل: إنها كانت تارة رخاء، وتارة عاصفة على ما يريده سليمان ويشتهيه، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين (٥).

وقوله- تعالى -: ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي: حيث أراد من البلاد (٦).

قال الزجاج: إجماع أهل اللغة والمفسرين أن معنى (حيث أصاب): حيث أراد، وحقيقته : حيث قصد (٧).

وقوله- تعالى -: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ (٨). الشياطين معطوف على الريح، أي: وسخرنا له الشياطين، وقوله: كل بناء وغواص بدل من الشياطين، أي: كل بناء منهم، وغواص منهم يبنون له ما يشاء من المباني، ويغوصون في البحر فيستخرجون له الدر منه (٩).

وقوله- تعالى -: ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ (١٠). (وآخرين مقرنين في الأصفاد) معطوف على (كل بناء)، داخل معه في حكم البدل من الشياطين. أي: أن الشياطين المسخرين لسليمان كان منهم البناؤون، وكان منهم الغواصون، وكان منهم المقيدون بالسلاسل والأغلال، لتمردهم وكثرة شرورهم (١١).

ومعنى(مقرنين) أي: مقرونا بعضهم ببعض بالأغلال والقيود. والأصفاد: جمع صفد وهو ما يوثق به الأسير من قيد وغل (١٢).

وقوله- تعالى -: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٣). الإشارة إلى التسخير المستفاد من (فسخرنا له الريح) إلى قوله:(والشياطين) أي: هذا التسخير عطاؤنا. والإضافة لتعظيم شأن المضاف لانتسابه إلى المضاف إليه فكأنه قيل: هذا عطاء عظيم أعطيناكه. والعطاء مصدر بمعنى المعطى مثل الخلق بمعنى المخلوق

و(امنن) أمر مستعمل في الإذن والإباحة، وهو مشتق من المن المكنى به عن الأنعام، أي فأنعم على من شئت بالإطلاق، أو أمسك في الخدمة من شئت.

فالمن: كناية عن الإطلاق بلازم اللام، كقوله- تعالى-: ﴿ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾(١٤) .(١٥)

---

(١) سورة ص: الآيات (٣٦ – ٤٠).

(٢) فتح القدير: للشوكاني، ٤/ ٤٩٧ .

(٣) السابق .

(٤) سورة الأنبياء: من الآية (٨١).

(٥) فتح القدير: للشوكاني، ٤ / ٤٩٧ .

(٦) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، ٧ / ٧٣ .

(٧) معاني القرآن وإعرابه: للزجاج ، ٤ /٣٣٣ .

(٨) سورة ص: من الآية (٣٧).

(٩) فتح القدير: للشوكاني، ٤ / ٤٩٨ .

(١٠) سورة ص: من الآية (٣٨).

(١١) التفسير الوسيط: للطنطاوي، ١٢ / ١٦٥ .

(١٢) السابق:

(١٣) سورة ص: من الآية (٣٩).

(١٤) السابق:

(١٥) سورة محمد: من الآية(٤).

وقوله- تعالى -: ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الحساب بمعنى المحاسبة المكنى بها عن المؤاخذة. والمعنى: امنن أو أمسك لا مؤاخذة عليك فيمن مننت عليه بالإطلاق إن كان مفسدا، ولا فيمن أمسكته في الخدمة إن كان صالحا

وقوله- تعالى -: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ (١). في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا (٢).

وقوله- تعالى -: ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٣). أي: مرجع في الجنة في الدرجات العلا (٤).

وممَّا سبق من ذكر دعاء سليمان – عليه السلام – نلحظ:

أن دعاءه لم يشتمل علي طلب المغفرة فحسب، ولكنه طلب الملك، فهو يؤكد أن الله هو الغفور الرحيم، وأنه القادر علي كل شيء، وأنه - سبحانه - يهب ما يشاء لمن يشاء، ويمنع عمن يشاء ما يشاء، مصداقاً لقوله- تعالي-: ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥).

كما يستفاد من دعائه – عليه السلام – ألا يجعل العبد جل دعائه وهمه أمر الدنيا، ولكن أن تكون الآخرة هي همه، والشاغل الأكبر، فيقرن بينهما في السؤال. كما في دعائه – عليه السلام - ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٦).

كما يؤخذ من دعائه – عليه السلام – أنه يجوز طلب الدنيا والملك إذا كانا من أجل خدمة الدين، والتمكن من أداء الحقوق لأصحابها، ونشر العدالة بين الناس، وتنفيذ شرع الله - تعالى- على الوجه الأكمل.

كما نلحظ في دعائه – عليه السلام – أنه توسل إلي ربه جل وعلا باسمه (الوهاب) وهذا التوسل يناسب دعاءه ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ فينبغي على العبد أن يتوسل إلي ربه جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي تناسب دعاءه .

كما يظهر أن الإجابة جاءت علي الفور موافقة الدعاء، حيث طلب ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه الله إياه ولم يخص به أحدا غيره.

كما نلحظ أن الله قد خصه بالمنزلة العالية، وحسن المرجع، في قوله - تعالى-: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ كما اختص بها نبي الله داود– عليه السلام – في قوله تعالي:﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾

كما يستفاد من دعائه أيضا أن العبد يناجي ربه ويدعوه بأعلى المطالب والمنازل، كما فعل سليمان – عليه السلام– في دعائه ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ وهذا ما أكد عليه النبي – صلى الله عليه وسلم– من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه - صلى الله عليه وسلم- قال: " إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فهو أوسط الجنة وهو أعلى الجنة وفوقه العرش ومنه تفجر أنهار الجنة " (٧).

---

(١) سورة ص: الآية (٤٠).

(٢) تفسير أبي السعود: ٧ / ٢٢٨ .

(٣) سورة ص: من الآية (٤٠).

(٤) أيسر التفاسير: للجزائري ، ٤ / ٤٥٠ .

(٥) سورة البقرة: من الآية(٢٤٧).

(٦) سورة ص: الآية (٣٥).

(٧) صحيح ابن حبان: لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، باب: ذكر الإخبار عن وصف درجات الجنان ،حديث: ٧٣٩٠ ، ١٦ / ٤٠٢ ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

دعاء محمد – صلى الله عليه وسلم :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [1].

سبب هذه الدعوة:

لما شرح الله- سبحانه وتعالى- أحوال الكفار[2]. في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أمر بالانقطاع إليه- سبحانه - والالتجاء إلى غفرانه ورحمته قائلاً لنبيه – صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [3].

فقوله- تعالى -: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ ﴾ أي: اغفر لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير [4].

وقد أمره- سبحانه - بالاستغفار لتقتدي به أمته. وقيل: أمره بالاستغفار لأمته [5].

والقول الثاني أصح حيث طلب أن يغفر من غير ذكر المغفور له، وطلب أن يرحم من غير ذكر من يُرحم، وذلك لشمول من يطلب الغفران لهم، والرحمة لهم [6].

وقوله- تعالى -: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه [7].

وفي قوله- تعالى -: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ إرشاد إلى أن الرحمة الحقيقية والشاملة إنما هي لله- سبحانه - وما رحمة كل راحم بغيره إلا جزء من مائة من رحمة الله- تعالى -: فإن الله- تعالى - أنزل ووزع في العالم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعة وتسعين [8].

فالقرآن الكريم قد أكد هذا الأمر في قوله- تعالى -: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٩).

وجاءت السنة النبوية موضحة له فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار" (١٠).

وهنا تتجلى بعض الفوائد [11]. لهذه الدعوة نذكر منها ما يلي:

١- أهمية التوسل إلى الله- تعالى - بربوبيته التي من مقتضياتها إجابة الدعاء.

٢- ينبغي للداعي أن يقدم طلب المغفرة قبل سؤاله الرحمة، كما هي عامة الأدعية.

٣- إن التوسل بأسماء الله- تعالى - المضافة من أعظم الممادح التي يمدح بها رب العزة والجلال، ومن أهم الأسباب الموجبة لقبول الدعاء؛ لأنه- تعالى - علمنا بهذا الدعاء كيف ندعوه، وكيف نتوسل إليه.

---

(١) سورة المؤمنون: من الآية (١١٨).

(٢) سورة المؤمنون: الآيات(١٠٤- ١١٧).

(٣) سورة المؤمنون: الآية (١١٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للسعدي، ٥٦٠ .

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب، ٩ / ١٥٩ ، فتح القدير: للشوكاني، ٣ / ٥٩٣ .

(٦) زهرة التفاسير: لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)١٠ / ٥١٢٩، دار النشر: دار الفكر العربي

(٧) السابق:

(١) التفسير الوسيط للزحيلي: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي ، ٢ / ١٧٢٦، الناشر: دار الفكر – دمشق ،الطبعة : الأولى - ١٤٢٢ هـ

(٢) سورة الأعراف: من الآية (١٥٦).

(٣) صحيح البخاري: باب: الرجاء مع الخوف ،حديث: ٦٤٦٩ ، ٨ / ٩٩ .

(٤) شرح الدعاء من الكتاب والسنة: لأبي عبد الرحمن ، ٢٢٦ – ٢٢٧ .

وعند إمعان النظر في دعاء خاتم الأنبياء محمد – صلى الله عليه وسلم– نجد:

أن دعاءه يدل دلالة جليلة على ما أوتيه – صلى الله عليه وسلم – من الشفقة والرحمة لجميع المؤمنين، فقد وصفه ربه - جل وعلا- بقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١).

كما نلحظ أنه – صلى الله عليه وسلم – قدم طلب المغفرة على الرحمة، وذلك لأن الرحمة لا تنال إلا بالمغفرة، وهذا ظاهر في السياق القرآني.

كما يتبين أن دعاءه – صلى الله عليه وسلم – يتميز بالإحاطة والشمول، حيث جاء مطلقا غير مقيد، ممَّا يدل على مدى أهمية هذا الدعاء، فقد جاء بصيغة الأمر في قوله (قل) ؛ ولذا أوصى به نبينا – صلى الله عليه وسلم – أبا بكر في الحديث الصحيح فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن أبا بكر-رضي الله عنه - قال: " يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي". فقال: " قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم " (٢).

كما نلحظ أن الهدف الأسمى والأعلى من وراء الدعاء يتجلى في الغفران والرضوان ومحو السيئات والدخول في الجنان، وهذا نراه بوضوح من لدن آدم أبو البشرية حتى خاتم الأنبياء محمد – صلى الله عليه وسلم – وهذا ما أكد عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: " جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: أي الدعاء أفضل؟ قال: سل ربك العفو والعافية، ثم أتاه في اليوم الثاني فقال: أي الدعاء أفضل؟ قال: سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، ثم أتاه في اليوم الثالث فقال: أي الدعاء أفضل؟ قال: سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة فإنك إن أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت " [٣].

فهذا جانب من أدعية الأنبياء – عليهم السلام – بطلب المغفرة والرحمة من الله- تعالى -: وهى كما رأينا دعوات طيبات خاشعات تضرعوا بها إلى خالقهم – عز وجل – وهذه الدعوات قد توفر فيها إخلاص النية وصدق اليقين، وسلامة القلب وكمال الأدب، وسمو الغاية وشرف المقصد، فينبغي لنا أن نتأسى بهم، ونسير على دربهم، فهم قدوتنا في حياتنا كلها.

---

(٥) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

(١) صحيح البخاري: باب الدعاء قبل السلام ،حديث ٨٣٤ ، ١ / ١٦٦ .

(٢) مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: لأبي بكرأحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت: ٢٩٢هـ)، باب: مسند أبي حمزة أنس بن مالك ، حديث: ٦٢٤٩ ، ١٢ / ٣٥٣ ، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

المبحث الثاني: الدعاء في مقام الخلوص والنجاة من الكافرين.

الدعاء في حياة الإنسان أمر فطري، فالإنسان لا يكاد يجد نفسه في مأزق أو ضيق، إلا وسارع إلى دعاء الله [١]. والأنبياء كانوا على علم بأهمية اللجوء إلى الله، ليس فقط وقت الضيق، إنما كانت حياتهم نسقا واضحا في دوام اللجوء إلي- سبحانه - ومن خلال تدبرنا لآيات دعاء الأنبياء في مقام الخلوص والنجاة من الكافرين، يتبين لنا كيف أن الله – عز وجل - نجاهم، ومكنهم من نشر دينه وتبليغ رسالته، فجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وإليك تفصيل ذلك.

دعاء نوح – عليه السلام :

قد قصَّ علينا القرآن الكريم في مواضع عدَّة مناجاته – عليه السلام – لربه وشكواه وتضرعه، طالباً نصره ونجاته من القوم الكافرين، وهذه المواضع نذكرها كالتالي:

الموضع الأول: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

الموضع الثاني: ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢].

الموضع الثالث: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [٣]

الموضع الرابع: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [٤].

الموضع الخامس: ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ [٥].

الموضع السادس: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ [٦].

فيما يلي تفصيل هذه المناجاة وبيان الاستجابة لها.

الموضع الأول: ﴿ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾:

فقوله - تعالى-:﴿ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أي: قال نوح في مناجاته لربه: يا رب انصرني على هؤلاء القوم الكافرين بسبب تكذيبهم لي وتطاولهم علي وسخريتهم منى، وإصرارهم على عبادة غيرك [٧] والباء في قوله:(بما كذبون) سببية في موضع الحال من النصر المأخوذ من فعل الدعاء، أي: نصرا كائنا بسبب تكذيبهم، فجعل حظ نفسه فيما اعتدوا عليه ملغى واهتم بحظ الرسالة عن الله لأن الاعتداء على الرسول استخفاف بمن أرسله. وقيل: الباء للاستعانة، وليست للسببية [٨].

---

(١) التفسير الحديث: لدروزة محمد عزت ، ٢ / ٤١٠ ، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، الطبعة: ١٣٨٣ هـ

(٢) موطأ مالك: لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ)باب: فضل القرآن ،حديث: ١٧٤ ، ١ / ٧٦ ، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف ، الناشر: المكتبة العلمية ، الطبعة: الثانية.

(٣) سورة القمر: الآية (١٠).

(٤) سورة نوح: الآية (٢٦).

(٥) سورة الأنبياء: من الآية (٧٦).

(٦) سورة الصافات: الآية (٧٥).

(٧) الوسيط للطنطاوي: ١٠ / ٢٧.

(٨) التحرير والتنوير:١٨ / ٤٥، التفسير القرآني للقرآن: ٩ / ١١٣٠.

وقد استجاب الله - عز وجل - له فقال: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [١].

فقوله - تعالى-:﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ ﴾ أي: أوحى الله - تعالى- إلى نوح أن يصنع الفلك لينجو فيه من أراد الله - تعالى- نجاته وهم الذين آمنوا وأهل نوح الذين لم يكفروا، و(أن) تفسيرية، لمعنى الإيحاء الذي أوحى به إلى نوح- عليه السلام-[٢].

وقوله - تعالى-:﴿ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أي: أوحينا إليه أن ابتدأ يا نوح في صنع السفينة وأنت تحت رعايتنا وحفظنا، وسنرسل إليك وحينا ليرشدك إلى ما أنت في حاجة إليه من إتقان صنع السفينة، ومن غير ذلك من شئون.

والتعبير بقوله - تعالى-:(أن اصنع) إشارة إلى أن نوحا- عليه السلام- قد باشر بنفسه صنع السفينة التي هي وسيلة النجاة له وللمؤمنين معه.

وفي قوله - تعالى-: (بأعيننا ووحينا) إشارة إلى أن نوحا بجانب مباشرته للصنع بنفسه، كان مزودا من الله- تعالى- بالعناية والرعاية وبحسن التوجيه والإرشاد عن طريق الوحي الأمين [٣].

وفي قوله:(اصنع الفلك بأعيننا) استعارة، عبر عن الحفظ والرعاية أو الحراسة بالصنع على الأعين لأن الحافظ للشيء يديم مراعاته في الأغلب بعينيه [٤].

وقوله- تعالى-: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّور﴾ أي: عذابنا بأمرنا، (وفار التنور) أي: فار الماء من تنور الخبز، فخرج سبب الغرق من موضع الحرق ليكون أبلغ في الإنذار والاعتبار[٥].

وللمفسرين في المراد بلفظ التنور أقوال: [٦].

الأول: أن المراد به الشيء الذي يخبز فيه الخبز، وهو ما يسمى بالموقد أو الفرن.

الثاني: أن المراد به وجه الأرض. الثالث: موضع اجتماع الماء في السفينة. الرابع: طلوع الفجر.

وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول فقال: وأولى الأقوال بالصواب: هو التنور الذي يخبز فيه، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب.

وقوله- تعالى-:﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي: أدخل فيها من كل صنفين زوجين ذكر وأنثى، واسلك بمعنى أَدْخِل.

وعبر هناك في سورة هود بقوله: (قلنا احمل فيها) وهنا بقوله: (فاسلك فيها) لأن آية سورة هود حكت ما خاطبه الله به عند حدوث الطوفان وذلك وقت ضيق فأمر بأن يحمل في السفينة من أراد الله إبقاءهم، فأسند الحمل إلى نوح تمثيلا للإسراع بإركاب ما عين له في السفينة حتى كأن حاله في إدخاله إياهم حال من يحمل شيئا ليضعه في موضع، وهذه الآية حكت ما خاطبه الله به من قبل حدوث الطوفان إنباء بما يفعله عند حدوث الطوفان فأمره بأنه حينئذ يدخل في السفينة من عين الله إدخالهم[٧].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٢٧).

(٢) زهرة التفاسير:١٠/ ٥٠٦٦.

(٣) الوسيط للطنطاوي : ١٠ / ٢٧.

(٤) المنير للزحيلي : ١٨ / ٣١.

(٥) البحر المديد: ٣ / ٥٧١.

(٦) الوسيط للطنطاوي: ١٠ / ٢٨.

(٧) التحرير والتنوير:١٨ / ٤٦.

وقوله - تعالى-:﴿ وَأَهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ والمراد بقوله: (وأهلك) أي: أهل بيته كزوجته وأولاده المؤمنين، ويدخل فيهم كل من آمن به- عليه السلام- سواء أكان من ذوى قرابته أم من غيرهم، بدليل قوله- تعالى-: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [1] [2].

والمراد بقوله: (من سبق عليه القول منهم) من بقي على كفره ولم يؤمن برسالة نوح - عليه السلام- كزوجته وابنه كنعان[3].

وقوله - تعالى-: ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ أي: لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنهم مقضي عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك والإصرار، ومن هذا شأنه لا يشفع له[4].

الموضع الثاني: ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [5].

فقوله- تعالى-:﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ صدر القول بالنداء إلى ربه للإشارة بالنداء إلى طلب النصر والعون، والمدد الكريم منه جلت قدرته، وهو الذي أظلهم بنعمة الربوبية، وقوله: (إن قومي كذبون) فيه إيماء إلى أنهم كذبوه، في حال كان يرجو إيمانهم؛ لأنهم أولا قومه، وعرفوا صدقه، وخوفه عليهم، ورفقه بهم، ورغبته لخيرهم، ومع كل هذا كذبوه وقطعوا صلته وأعلنوا عداوته، وهددوه بالرجم [6].

وقوله - تعالى-:﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ أي: فاحكم بيني وبينهم ، والمراد من هذا الحكم إنزال العقوبة عليهم لأنه قال عقبه: ونجني ولولا أن المراد إنزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى

وقوله: (فافتح بيني وبينهم فتحا) استعارة تبعية، استعار المفتاح للحاكم، والفتح للحكم لأنه يفتح المنغلق من الأمر، والمعنى: احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل.

وقوله - تعالى-:﴿ وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ونجني أي: من ذلك العذاب الذي تأتي به حكما بيني وبينهم. (ومن معي من المؤمنين) أي: والذين معي من أهل الإيمان بك والتصديق لي

فأجابه الله - عز وجل – قائلاً: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾

فقوله - تعالى-:﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أي: الذين معه في الإيمان والإذعان والتصديق وناصروه، وإن كانوا قليلا

وقوله - تعالى-:﴿ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ المشحون: هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيه من كل زوجين اثنين

وقوله - تعالى-:﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ أي: بعد إنجائنا نوحا ومن معه من المؤمنين بأن ركبوا في الفلك وما زال الماء يرتفع النازل من السماء والنابع من الأرض حتى غرق كل من على الأرض والجبال ولم ينج أحد إلا نوح وأصحاب السفينة

---

(١) الوسيط للطنطاوي: ١٠ / ٢٨.

(٢) سورة هود: من الآية (٤٠).

(٣) الوسيط للطنطاوي: ١٠ / ٢٨.

(٤) البحر المديد: ٣ / ٥٧٢.

(٥) التحرير والتنوير:١٨ / ٤٦.

(٦) زهرة التفاسير:١٠ / ٥٣٨٠.

الموضع الثالث: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[1].

فقوله - تعالى-:﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ أي: فدعا نوح ربه: إن قومي قد غلبوني، تمردوا وعتوا، ولا طاقة لي بهم، فانتصِر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك[2].

(والمغلوب) مجاز، شبه يأسه من إجابتهم لدعوته بحال الذي قاتل أو صارع فغلبه مقاتله، وقد حكى الله - تعالى- في سورة نوح كيف سلك مع قومه وسائل الإقناع بقبول دعوته فأعيته الحيل[3].

فأجاب الله – عز وجل– سؤاله قائلاً: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ، وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[4].

فقوله - تعالى-:﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ أي: فصببنا عليهم ماء ثجاجا من السماء، وتقول العرب في المطر الوابل: جرت ميازيب السماء. روى أنهم طلبوا المطر سنين فأهلكهم الله بما طلبوا[5].

وفي فتح أبواب السماء قولان: [6]. أحدهما: أنه فتح رُتُجِها وسعة مسالكها.

الثاني: أنها المجرة وهي شرج السماء ومنها فتحت بماء منهمر.

وفى الآية إيماء إلى أن الله انتصر منهم، وانتقم بماء لا بجند أنزله[7].

(ففتحنا أبواب السماء) استعارة تمثيلية، شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء[8].

والباء في قوله (بماء) للتعدية على المبالغة، حيث جعل الماء كالآلة التي يفتح بها[9].

وقوله - تعالى-:﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً ﴾ أي: فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلا عن كونه منبعا للماء، لأنه موضع النار.

(وفجرنا الأرض عيونا) فهو أبلغ من قوله: (وفجرنا عيون الأرض) لأنه يكون حقيقة لا مبالغة فيه[10].

وقوله - تعالى-:﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرٍ ﴾ بيان لكمال حكمته - تعالى- بعد بيان مظاهر قدرته. أي: فاجتمع الماء النازل من السماء، مع الماء المتفجر من الأرض، على أمر قد قدره الله - تعالى- وقضاه أزلا ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان[11].

---

(١) سورة القمر: الآية (١٠).

(٢) تفسير الطبري:٢٢ / ٥٧٧.

(٣) التحرير والتنوير:٢٧ / ١٨٢.

(٤) سورة القمر: الآيات (١١ -١٥).

(٥) تفسير المراغي: ٢٧ / ٨٣.

(٦) تفسير الماوردي: ٥ / ٤١٢.

(٧) تفسير المراغي: ٢٧ / ٨٣.

(٨) المنير للزحيلي: ٢٧ / ١٥٤.

(٩) الوسيط للطنطاوي:١٤ / ١٠٢.

(١٠) تفسير الرازي: ٢٩ / ٢٩٦.

(١١) الوسيط للطنطاوي:١٤ / ١٠٣.

وقال- سبحانه- (فالتقى الماء) بالإفراد، لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريقة المجاورة، بل كان بطريق الاتحاد والاختلاط، حتى لكان الماء النازل من السماء، والمتفجر من الأرض، قد التقيا في مكان واحد كما يلتقي الجيشان المعدان لإهلاك غيرهما [1].

و(على) في قوله: (على أمر) يجوز أن تكون على للاستعلاء المجازي، أي ملابسا لأمر قد قدر ومتمكنا منه. ومعنى التمكن: شدة المطابقة لما قدر، وأنه لم يحد عنه قيد شعرة. (والأمر) هنا: الحال والشأن وتنوينه للتعظيم

وقوله - تعالى-:﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ أي: وأنقذناه من الطوفان، فحملناه على سفينة ذات خشب ومسامير[2].

وفى هذا إيماء إلى أنه - تعالى- يوجِد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات، بحسب السنن التي وضعها في الخليقة، وأنه يمهل الظالمين، ولا يهملهم [3].

وفي (الدسر) أربعة أقاويل:[4] أحدها: المعاريض التي يشد بها عرض السفينة، الثاني: أنها المسامير دسرت بها السفينة، أي: شدت، الثالث: صدر السفينة الذي يضرب الموج، لأنها تدسر الماء بصدرها أي: تدفعه، الرابع: أنها طرفاها وأصلها.

وفي قوله :(حملناه على ذات ألواح ودسر) كناية عن السفينة التي تتركب من الأخشاب والمسامير[5].

وقوله - تعالى-:﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي: تجرى محفوظة بحراستنا، فقد كانت بمرأى منا فنحن نكلؤها ونرعاها، كما يرعى المرء ما يراه بعينه، ويقع تحت سمعه وبصره، ويقول القائل إذا وصى آخر بأمر وشدد عليه: اجعله نصب عينيك أي اهتم به، ولا تهمله

وقوله:(جزاء لمن كان كفر) أي: فعلنا ذلك بهم جزاء كفرهم بآياتنا، وجحودهم بنعمائنا، وتكذيبهم برسولنا [6].

وحذف متعلق (كفر) لدلالة الكلام عليه. وتقديره: كفر به، أو لأنه نصح لهم ولقي في ذلك أشد العناء فلم يشكروا له بل كفروه فهو مكفور[7].

وقوله - تعالى-:﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده نوح - عليه السلام- ثم أبقى الله - تعالى- صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعته، (فهل من مدكر)؟ أي: فهل من متذكر للآيات، ملق ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟ [8].

---

(١) السابق .

(٢) تفسير المراغي: ٢٧ / ٨٣.

(٣) السابق .

(٤) تفسير الماوردي: ٥ / ٤١٢.

(٥) المنير للزحيلي: ٢٧ / ١٥٤.

(٦) تفسير المراغي: ٢٧ / ٨٣.

(٧) التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٨٥.

(٨) السعدي: ٨٢٥.

الموضع الرابع: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾:[1].

فقوله - تعالى-:﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارا ﴾ أي: وقال نوح رب لا تدع على وجه الأرض منهم أحدا [2].

اختلفوا في سبب دعاء نوح على قومه بهذا على قولين:[3].

أحدهما: أنه لما نزل عليه قوله - تعالى-: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ [4]. دعا عليهم بهذا الدعاء.

الثاني: أن رجلا من قومه حمل ولده صغيرا على كتفه، فمر بنوح ، فقال لابنه: احذر هذا فإنه يضلك فقال: يا أبت أنزلني فأنزله فرماه فشجه ، فحينئذ غضب نوح ودعا عليهم.

وقوله :(ديارا) أي: من يسكن الديار ويدور في الأرض وأصله ديوار على فيعال مثل القيام أصله قيوام، وأصله من الدار أي نازل بالدار يقال ما بالدار ديار وديور أي: أحد كقيام وقيوم، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام، والمعنى لا تدع أحدا منهم إلا أهلكته، وقيل هو مأخوذ من الدوران وهو التحرك [5].

فاستجاب الله له فأغرقهم ولم يُبْقِ منهم أحدا ونجى الله نوحا وأهله ومن معه من المؤمنين.

الموضع الخامس: ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾: [6].

فقوله - تعالى-:﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: دعا على قومه من قبل إبراهيم وإسحاق - عليهما السلام [7]

وفائدة ذكر هذه القبلية التنبيه على أن نصر الله أولياءه سنته المرادة له تعريضا بالتهديد للمشركين المعاندين ليتذكروا أنه لم تشذ عن نصر الله رسله شاذة ولا فاذة [8].

فاستجاب الله – عز وجل – دعاءه قائلاً: ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [9].

فقوله - تعالى-:﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾

الفاء " للترتيب والتعقيب، والمراد بالتعقيب تأكيد الإجابة [10]. أي: أجبنا له دعاءه، ولم نخيب له رجاء فينا فنجيناه وأهله الذين آمنوا به وصدقوه من الكرب العظيم أي: من الطوفان العظيم الذي أغرق الكافرين، والذي كانت أمواجه كالجبال. وأصل الكرب: الغم الشديد [11].

(١) سورة نوح: الآية (٢٦).

(٢) تفسير المراغي:٢٩ / ٨٩.

(٣) تفسير الماوردي: ٦ / ١٠٥.

(٤) سورة هود: من الآية(٣٦).

(٥) فتح البيان: ١٤ / ٣٤٤.

(٦) سورة الأنبياء: من الآية (٧٦).

(٧) تفسير السمرقندي: ٢ / ٤٣٣.

(٨) التحرير والتنوير: ١٧ / ١١٣.

(٩) سورة الأنبياء: الآيتان (٧٦- ٧٧).

(١٠) زهرة التفاسير:٩ / ٤٨٩٨.

(١١) الوسيط للطنطاوي: ٩ / ٢٣٣.

وفي تفسير الكرب وجوه: [1].
أحدها: أنه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين.
وثانيها: أنه تكذيب قومه إياه وما لقي منهم من الأذى.
وثالثها: أنه مجموع الأمرين وهو قول ابن عباس- رضي الله عنهما- وهو الأقرب
لأنه - عليه السلام - كان قد دعاهم إلى الله - تعالى- مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه، وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند إعلام الله - تعالى- إياه أنه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضا على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذي يتخلص من الغرق ومن الذي يغرق فأزال الله - تعالى- عنه الكرب العظيم بأن خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه.

وقوله - تعالى-:﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي: ونصرناه على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا [2].

وعدي (نصرناه) بحرف (من) لتضمينه معنى المنع والحماية وهو أبلغ من تعديته بـ (على) لأنه يدل على نصر قوي تحصل به المنعة والحماية فلا يناله العدو بشيء. وأما نصره عليه فلا يدل إلا على المدافعة والمعونة [3].

ووصف القوم بالموصول للإيماء إلى علة الغرق الذي سيذكر بعد. وجملة (إنهم كانوا قوم سوء) علة لنصر نوح عليه السلام - لأن نصره يتضمن إضرار القوم المنصور عليهم [4].

وقوله - تعالى-: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: إن سبب إهلاكهم أنهم قوم سوء لأجل تكذيبهم لنبيهم، فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله جميعا صغارا وكبارا، ولم يبق منهم أحد. وإضافة (قوم إلى السوء) إشارة إلى أنهم عرفوا به. والمراد به الكفر والتكبر والعناد والاستسخار برسولهم [5].

الموضع السادس: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾: [6].

فقوله - تعالى-:﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ أي: دعانا، ودعاؤه كان على قومه عند إياسه من إيمانهم، وإنما دعا عليهم بالهلاك بعد طول الاستدعاء لأمرين: أحدهما: ليطهر الله الأرض من العصاة. الثاني: ليكونوا عبرة يتعظ بها من بعدهم من الأمم.

وقوله:﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: فلنعم المجيبون لنوح في دعائه . الثاني: فلنعم المجيبون لمن دعا لأن التمدح بعموم الإجابة أبلغ

والفاء في قوله: (فلنعم المجيبون) تفريع على نادانا، أي: نادانا فأجبناه، فحذف المفرع لدلالة فلنعم المجيبون عليه لتضمنه معنى فأجبناه جواب من يقال فيه: نعم المجيب. والمخصوص بالمدح محذوف، أي: فلنعم المجيبون نحن.)

فأجابه ربه تبارك و- تعالى- قائلاً: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ [7].

(١) تفسير الرازي:٢٢ / ١٦٣.

(٢) تفسير المراغي:١٧ / ٥٥.

(٣) التحرير والتنوير:١٧ / ١١٣.

(٤) السابق.

(٥) المنير للزحيلي: ١٧ / ٩٥ ، التحرير والتنوير:١٧ / ١١٤.

(٦) سورة الصافات: الآية (٧٥).

(٧) سورة الصافات: الآيات (٧٦-٧٨).

فقوله - تعالى-: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ يحتمل نجاته من الكرب العظيم هو: دعاؤه قومه إلى توحيد الله - عز وجل- تسعمائة وخمسين سنة، وما قاساه منهم من أنواع الأذى من التكذيب وغيره، فأنجاه الله من كرب ذلك حين أهلكهم. وقيل: هو القول الشديد وهو الغرق، أغرق قومه وأنجاه منه، سماه: عظيما؛ لشدة ما أصابهم [(١)].

وقوله - تعالى-: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴾ أي: وجعلنا ذريته من بعده هم الذين بقوا وبقي نسلهم من بعدهم، وذلك لأن الله - تعالى- أهلك جميع الكافرين من قومه، أما من كان معه من المؤمنين من غير ذريته، فقد قيل: إنهم ماتوا، ولم يبق سوى أولاده. وقال ابن عباس: لم تبق إلا ذرية نوح. وقال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح [(٢)].

وقوله - تعالى-: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ أي: وأبقينا له ثناء حسنا وذكرا جميلا فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة [(٣)].

وعند إمعان النظر في دعاء نوح – عليه السلام – نجد:

أن دعاءه علي قومه لم يكن عقب معارضتهم إياه مباشرة، بل استمر يدعوهم مدة طويلة أخبر عنها القرآن الكريم في قوله - تعالى-: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [(٤)] استمر يدعوهم هذه المدة بلا كلل ولا ملل، متصفاً بكل كمال يحتاجه الدعاة، من عزيمة قوية، وصبر شديد، وسماحة وعفو، وتحمل للمشاق والمصاعب، ورغبة مستمرة في النصح ونصرة الحق، ولما أخبره – سبحانه – بأنه لن يؤمن منهم أحد بعد ذلك كما حكى القرآن الكريم في قوله - تعالى-: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ [(٥)]. طلب من ربه أن يهلك الكافرين قائلاً: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [(٦)].

ثم علل– عليه السلام– طلب إهلاكهم بأنهم يعملون على إضلال العباد، ونشر الفساد في الأرض، وأيضا فإن كفرهم وعتوهم ينتقل بالوراثة إلي بنيهم، فلا يلدون إلا فاجرا كفارا كما حكى القرآن الكريم على لسانه قائلاً: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [(٧)].

وعند تتبع الأحداث في قوم نوح نجد أنهم أغرقوا بالخطايا التي ارتكبوها كما حكى لنا القرآن الكريم في قوله - تعالى-: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً ﴾ [(٨)] فما وقع عقاب علي أمة من الأمم إلا بذنب قال - تعالى-: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [(٩)].

كما نلحظ أن الإجابة قد جاءت علي الفور ولم تتأخر ، وهذا يدل على كمال عناية الله – عز وجل- لأنبيائه ومدى حفظه لهم ورعايته بهم.

---

(١) تفسير الماتريدي:٨ / ٥٧٠.

(٢) الوسيط للطنطاوي: ١٢ / ٩٢.

(٣) تفسير المراغي:٢٣ / ٦٧.

(٤) سورة العنكبوت: من الآية (١٤).

(٥) سورة هود: من الآية (٣٦).

(٦) سورة نوح: الآية (٢٦).

(٧) سورة نوح: الآية (٢٧).

(٨) سورة نوح: الآية (٢٥).

(٩) سورة العنكبوت: الآية (٤٠).

دعاء هود – عليه السلام :

قوله - تعالى-:﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [1].

فقوله - تعالى-: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أي: قال بعد أن يئس من إيمانهم وقد سلك في دعوتهم كل مسلك، متضرعا إلى ربه: رب انصرني عليهم وانتقم لي منهم بتكذيبهم إياي فيما دعوتهم إليه من الحق وإصرارهم على الباطل[2].

وقد اختلف المفسرون في هذا الدعاء هل هو من دعاء هود أم صالح – عليهما السلام- وذلك على قولين ؟ [3].

الأول: ذهب أكثر المفسرين[4] إلي أن المراد به دعاء هود - عليه السلام- واستدلوا علي ذلك بأن قصة قوم هود جاءت في سورة الأعراف، وفي هود، وفي الشعراء بإثر قصة قوم نوح قال - تعالى-:﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[5] والترتيب يقتضي قوم عاد.

الثاني: وذهب الإمام الطبري: إلي أن المراد به دعاء صالح- عليه السلام- واستدل علي ذلك بأن قوم ثمود أهلكوا بالصيحة، فقال - تعالى-:(فأخذتهم الصيحة) ولم يأت أن قوم هود هلكوا بالصيحة.

فاستجاب له ربه - تبارك وتعالى- بقوله : ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ، فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [6].

فقوله - تعالى-: ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ أي: قال - تعالى- مجيبا دعاءه: ليصيرَنَّ قومك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا، وذلك حين ظهور علامات الهلاك لهم، فيحصل منهم الحسرة والندامة على ترك قبول دعوتك لهم إلى الإيمان بالله والتوحيد، وعلى مخالفتك وتكذيبك ومعاندتهم إياك.

وقوله - تعالى-:﴿ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ أي: فسلطنا عليهم نقمتنا فأخذهم العذاب الذي لا قبل لهم به، وقد كانوا لمثله مستحقين، بسبب كفرهم وتكذيبهم برسوله، فجعلناهم كغثاء السيل، لا غناء فيهم، ولا فائدة ترجى منهم (والغثاء): الرميم الهامد الذي يحمله السيل من ورق الشجر وغيره، يقال: غثا الوادي يغثوا إذا كثر غثاؤه.

وقوله - تعالى-:﴿ فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: بعدا من الرحمة وهلاكا، وسحقا وتدميرا للقوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وطغيانهم وعصيان رسولهم وفي هذا غاية المهانة والذلة لهم، وإظهار قدرة الله عليهم، وإنذار السامعين أمثالهم من تكذيب رسولهم بأن يصيبهم من العذاب مثل ما أصابهم.

وذكر- سبحانه- هنا (الصيحة) فقط مع أن قوم هود قد أهلكوا بها وبالريح الصرصر العاتية للإشعار بأن إحدى هاتين العقوبتين لو انفردت كافية لإهلاكهم، فقد قال- سبحانه- في شأن الريح التي أرسلها عليهم: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [7][8].

---

(١) سورة المؤمنون : الآية (٣٩).

(٢) تفسير المراغي : ١٨ / ٢٣.

(٣)البحر المحيط: ٧ / ٥٥٨ ، المنير: للزحيلي ١٨ / ٤١ ، تفسير المراغي: ١٨ / ٢٣، الوسيط: ١٠ / ٣٠.

(٤) منهم: ابن عباس، المراغي، الزحيلي ، الطنطاوي.

(٥) سورة الأعراف: من الآية (٦٩).

(٦) سورة المؤمنون : الآيات (٤٠ - ٤١).

(٧) الوسيط للطنطاوي : ١٠ / ٣٤.

(٨) سورة الأحقاف : الآية (٢٥).

وعند النظر في دعاء هود – عليه السلام– نجد :

أنه قد عُنِّيَ كثيراً في دعوته مع قومه ، فالناظر في ثنايا القرآن الكريم يجد أنه – عليه السلام- قدم لهم من الأدلة والبراهين التي تعرفهم بالله وبصفاته، وتوضح لهم ضرورة التوجه بالعبادة لله وحده ، وتبين لهم أن الله هو خالقهم ، والمنعم عليهم ، وهو – سبحانه- الذي أعطاهم كافة ما هم فيه من صحة، وقوة ، وحضارة ومن هذه الأدلة والبراهين ما يلي:

١- قوله - تعالى- ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

٢- قوله - تعالى- : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [١].

٣- قوله - تعالى- : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [٢].

فدعاهم إلي الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكنهم تمسكوا بالضلال ، ولم يسلموا بوحدانية الله وأخذوا يردون على هود – عليه السلام – في عتو واستكبار كما اخبر القرآن الكريم عن ذلك في قوله - تعالى-: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ ﴾ [٣] ولم يكفوا عن الأذى بل سبوه ورموه بخفة العقل والكذب في قوله - تعالى-: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ ﴾ [٤]. بل وأعلنوا الكفر جهراً فقالوا: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْوَاعِظِينَ، إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [٥].

وهنا توقف هود– عليه السلام– عن دعوتهم ورفع أكف الضراعة لله – عز وجل– طالباً نصره وعونه قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [٦] فكانت الإجابة من الله على الفور قائلاً : ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ، فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٧]. وقوله - تعالى-:﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [٨].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله- : اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي [٩] فأهلكهم الله – عز وجل – بكفرهم وظلمهم ، ونجى الله هوداً ومن آمن به، قال - تعالى-:﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [١٠].

---

(١) سورة هود: الآية (٥٢).

(٢) سورة الشعراء: الآيات (١٣٢- ١٣٥).

(٣) سورة الأعراف : الآية (٧٠).

(٤) سورة الأعراف : الآية (٦٦).

(٥) سورة الشعراء: الآيات (١٣٦- ١٣٨).

(٦) سورة المؤمنون : الآية (٣٩).

(٧) سورة المؤمنون : الآيات (٤٠ - ٤١).

(٨) سورة الحاقة : الآية (٦).

(٩) تفسير ابن كثير: ٥ / ٤٧٤.

(١٠) سورة هود : الآية (٥٨).

دعاء لوط – عليه السلام –

قد حكى القرآن الكريم مناجاته لربه وتضرعه إليه – سبحانه – طالباً نصره ونجاته من قومه المفسدين وذلك في موضعين هما:

الموضع الأول: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [1].

الموضع الثاني: ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [2].

وفيما يلي تفصيل هذا الدعاء وبيان الاستجابة عليه.

الموضع الأول: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾:

فقوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عقوبة ما يعملون من المعاصي. ويحتمل أن يكون دعاء لأهله بالعصمة من أن يقع واحد منهم في مثل فعل قومه [3].

فاستجاب الله – عز وجل – له قائلاً: ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [4].

فقوله - تعالى-: ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي: أهل بيته والمتبعين له على دينه بإخراجهم من بينهم وقت حلول العذاب بهم [5].

وقوله - تعالى-: ﴿ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ ﴾ أي: إلا عجوزا هي امرأته، وكانت راضية بذلك، والراضي بالمعصية في حكم العاصي، ولو لم يحضر. واستثناؤها من الأهل لأنها داخلة فيه ولو لم تكن مؤمنة لاشتراكها في الأهلية بحق الزواج. بقيت في الغابرين في الباقين في العذاب، وهي صفة لها. والغابر: المتصف بالغبور وهو البقاء بعد ذهاب الأصحاب أو أهل الخير، أي: باقية في العذاب بعد نجاة زوجها وأهله وهي مستثناة من (أهله أجمعين). لحقها العذاب من دون أهلها فكان صفة لها[6].

وقوله - تعالى-: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾ أي: ثم أهلكنا قوم لوط المصرين على كفرهم وعلى إتيانهم المنكر، تدميرا شديدا، فإنا جعلنا أعلى قريتهم سافلها، وأبدناهم عن آخرهم[7] و(ثم) للتراخي الرتبي لأن إهلاك المكذبين أجدر بأن يذكر في مقام الموعظة من ذكر إنجاء لوط المؤمنين. والتدمير: الإصابة بالدمار وهو الهلاك، وذلك أنهم استؤصلوا بالخسف وإمطار الحجارة عليهم [8].

وقوله - تعالى-: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي: أنزل عليهم حجارة من السماء فأمطروا بها بعد قلب البلاد عاليها سافلها. وقوله (فساء مطر المنذرين): أي: فقبح مطر المنذرين ولم يمتثلوا فما كفوا عن الشر والفساد[9].

---

(١) سورة الشعراء: الآية (١٦٩).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٣٠).

(٣) البحر المحيط: ٨ / ١٨٤.

(٤) سورة الشعراء: الآيات (١٧١- ١٧٣).

(٥) تفسير البيضاوي: ٤ / ١٤٨.

(٦) البحر المديد: ٤ / ١٥٧ ، التحرير والتنوير: ١٩ / ١٨١.

(٧) الوسيط للطنطاوي: ١٠ / ٢٧٣.

(٨) التحرير والتنوير: ١٩ / ١٨١.

(٩) أيسر التفاسير: ٣ / ٦٧٦.

الموضع الثاني: ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾: [١].

فقوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِين ﴾ أي: رب انصرني بإنزال العذاب. على القوم المفسدين بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم، وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب وإشعارا بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب [٢].

وأراد (بالنصر) عقاب المكذبين ليريهم صدق ما أبلغهم من رسالة الله. ووصفهم بـــــــ (المفسدين) لأنهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش وتدريبهم بها، وفي هذا الوصف تمهيد للإجابة بالنصر لأن الله لا يحب المفسدين[٣].

فأجابه الله – عز وجل – بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ، قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِين ﴾[٤].

فقوله - تعالى-: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ أي: جاءت الملائكة بالبشارة لإبراهيم بالولد، والنافلة إسحاق، ويعقوب، أي: مروا عليه حين كانوا قاصدين قوم لوط [٥].

والبشرى: اسم للبشارة وهي الإخبار بما فيه مسرة للمخبر بفتح الباء [٦].

وقوله - تعالى-: ﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ إضافة (مهلكو) لم تفد تعريفا لأنها بمعنى الاستقبال والقرية (سدوم) التي قيل فيها(أَجْوَرُ من قاضي سدوم) وهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم - عليه السلام- قالوا: إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم - عليه السلام - [٧].

وقوله - تعالى-: ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أي: لأنفسهم بتماديهم في فنون الفساد، وأنواع المعاصي، وتكذيبهم رسولهم. وقوله(إن أهلها كانوا ظالمين) تعليل للإهلاك وقصد به استئناس إبراهيم لقبول هذا الخبر المحزن، وأيضا لأن العدل يقتضي أن لا يكون العقاب إلا على ذنب يقتضيه، والظلم: ظلمهم أنفسهم بالكفر والفواحش، وظلمهم الناس بالغصب على الفواحش والتدرب بها

وقوله - تعالى-: ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ أي: قال إبراهيم إشفاقا على لوط ليعلم حاله: إن في القرية لوطا وهو ليس من الظالمين لأنفسهم، بل هو من رسل الله وأهل الإيمان به والطاعة له، فقال الرسل نحن أعلم منك بمن فيها من الكافرين، وبأن لوطا ليس منهم

وقوله:(قال إن فيها لوطا) اعتراض عليهم بأن فيها من لم يظلم، أو معارضة للموجب بالمانع وهو كون النبي بين أظهرهم

وقوله - تعالى-: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِين ﴾ أي: لننجينه وأتباعه من الهلاك الذي هو نازل بأهل القرية إلا امرأته فإنها من الباقين في العذاب لممالأتها إياهم على الكفر والبغي وفعل الخبائث.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٣٠).

(٢) تفسير البيضاوي: ٤ / ١٩٣.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٠ / ٢٤١.

(٤) سورة العنكبوت : الآيتان (٣١-٣٢).

(٥) البحر المديد : ٤ / ٢٩٩.

(٦) التحرير والتنوير : ٢٠ / ٢٤٢.

(٧) تفسير النسفي : ٢ / ٦٧٤.

كما قص علينا القرآن الكريم استجابة الله – عز وجل – لنبيه لوط – عليه السلام - في مواضع أخرى بصيغ مختلفة نذكرها فيما يلي:

الموضع الأول:

قوله - تعالى-: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

الموضع الثاني:

قوله - تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

الموضع الثالث:

قوله - تعالى-: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ، إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ الْغَابِرِينَ ﴾.

الموضع الرابع:

قوله - تعالى-: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾

الموضع الخامس:

قوله - تعالى-: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنْ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾

الموضع السادس:

قوله - تعالى-: ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾

الموضع السابع:

قوله - تعالى-: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ، نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ

وفيما يلي أقف مع تلك المواضع مفصلا إياها:

الموضع الأول:

قوله - تعالى-: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

فقوله - تعالى-: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ ﴾ أي: من آمن معه، إلا امرأته فإنها كانت تسر الكفر كانت من الغابرين أي: الباقين في ديارهم فهلكوا وهلكت معهم. وقيل: (من الغابرين) ولم يقل(الغابرات) لأنه أريد أنها ممن بقي مع الرجال، فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل: من الغابرين.

وقوله - تعالى-: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً ﴾ أي: أرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيبا. قيل: كانت المؤتفكة خمس مدائن. وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام

والمدينة. فأمطر الله عليهم الكبريت والنار. وقيل: خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم. وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم وتنكير: (مطرا) للتعظيم والتعجيب أي: مطرا عجيبا من شأنه أن يهلك القرى

وقوله - تعالى-: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الخطاب لكل من يسمع القصة أو يقرأها من أهل النظر والاعتبار، والمراد: أن يعلم أن عاقبة القوم المجرمين لا تكون إلا وبالا وعقابا، فإن الأمم تعاقب على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة باطراد [1].

الموضع الثاني:

قوله - تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [2].

فقوله - تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي: فلما جاء أمرنا بالعذاب وقضاؤنا فيهم بالهلاك قلبنا قراها كلها وخسفنا بها الأرض[3].

قوله - تعالى-: (فلما جاء أمرنا) فيه ثلاثة أوجه: [4] أحدها: أنه أمر الله - تعالى- للملائكة. الثاني: أنه وقوع العذاب بهم. الثالث: أنه القضاء بعذابهم.

وقوله - تعالى-: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴾ أي: من حجر وطين مختلط ، قد تحجر وتصلب منضود أي: متتابع في النزول بدون انقطاع موضوع بعض على بعض، من النضد وهو وضع الأشياء بعضها إلى بعض. وقوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) زيادة في عقوبتهم ولعنهم [5].

وقوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) فيه ثمانية تأويلات: [6].

أحدها: أنه فارسي معرب وهو (سنك وكيل) فالسنك: الحجر، والكيل الطين.

الثاني: أنه طين قد طبخ حتى صار كالأرحاء ، الثالث: أنه الحجارة الصلبة الشديدة الرابع: من سجيل يعني من سماء اسمها سجيل. الخامس: من سجيل من جهنم واسمها سجين فقلبت النون لاما. السادس: أن السجيل من السجل وهو الكتاب وتقديره من مكتوب الحجارة التي كتب الله - تعالى- أن يعذب بها أو كتب عليها السابع: أنه فعيل من السجل وهو الإرسال ، يقال أسجلته أي أرسلته ، ومنه سمي الدلو سجلا لإرساله فكان السجل هو المرسل عليهم. الثامن: أنه مأخوذ من السجل الذي هو العطاء ، يقال سجلت له سجلا من العطاء ، فكأنه قال سجلوا البلاء أي أعطوه.

وقوله - تعالى-: ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي: التي لها علامة حال من حجارة، وسوغ مجيئها من النكرة تخصيص النكرة بالوصف، والتسويم العلامة، قيل كان عليها أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمى به، وقيل: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض فذلك تسويمها. وقيل: عليها سيماء لا تشاكل حجارة الأرض وقيل: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع.

وقوله(عند ربك) أي: في خزائنه أو في حكمه والخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم - .

وقوله - تعالى-: ﴿ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ أي: وما هذه القرى التي حل بها العذاب بمكان بعيد عنكم أيها المشركون من أهل مكة الظالمون لأنفسهم بتكذيبك والمماراة فيما تنذرهم به، بل هي قريبة منكم على طريقكم في رحلة الصيف إلى الشام. وفي هذا عبرة للظالمين في كل زمان وإن اختلف العذاب باختلاف الأحوال وأنواع الظلم كثرة وقلة ومقدار أثره في الأمة من إفساد عام أو خاص.

---

(١) تفسير المنار : ٨ / ٤٦٠..

(٢) سورة هود: الآيتان (٨٢ -٨٣).

(٣) تفسير المراغي : ١٢ / ٦٧.

(٤) تفسير الماوردي : ٢ / ٤٩٢.

(٥) الوسيط للطنطاوي : ٧ / ٢٥٢.

(٦) تفسير الماوردي : ٢ / ٤٩٣.

الموضع الثالث:

قوله - تعالى-: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ، إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ الْغَابِرِينَ ﴾ [1].

فقوله - تعالى-: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ أي: كثر فسادهم وعظم شرهم، لنعذبهم ونعاقبهم [2]. وصفهم سبحانه (بالإجرام) لأنهم لم يكفروا فقط، بل أضافوا إلى الكفر فقد الطبيعة الإنسانية. فشذوا بفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين وإذا كانوا قد وصفوهم بأنهم مجرمون، فمؤدى ذلك أنهم جاءوا لإنزال العقوبة بهم [3].

وقوله - تعالى-: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: أن الهلاك واقع بالمجرمين لا محالة، ما عدا آل لوط فإنهم ناجون منه، واستثناء امرأته؛ لأنها ما كانت مؤمنة بلوط، ونبوته؛ ولذا كان استثناؤها من الناجين[4].

وقوله: (إنا لمنجوهم أجمعين) استئناف بياني لبيان الإجمال الذي في استثناء آل لوط من متعلق فعل (أرسلنا) لدفع احتمال أنهم لم يرسلوا إليهم ولا أمروا بإنجائهم [5].

وقوله - تعالى-:﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ الْغَابِرِينَ ﴾ أي: لا نهلك آل لوط وأتباعه إلا امرأته فقد قضى الله أنها من الباقين مع الكفرة، ثم هي مهلكة بعد ذلك معهم، وقد أضاف الملائكة هذا التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله - تعالى-، بيانا لمزيد قربهم من ربهم، واختصاصهم به - تعالى- كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبر الآمر هو الملك [6].

وفي قوله: (قدرنا إنها لمن الغابرين) أسند فعل التقدير إلى الملائكة مجازا وهو لله وحده، لما لهم من القرب [7].

الموضع الرابع:

قوله - تعالى-: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [8].

فقوله - تعالى-: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾

(ونجيناه) أي: إبراهيم (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) أي: إنه - تعالى- أتم عليه النعمة فأنجاه وأنجى لوطا معه إلى الأرض التي باركها بكثرة ما بعث فيها من الأنبياء الذين انتشرت شرائعهم في أقاصي المعمور وكثرة خصبها وأشجارها وثمارها وأنهارها، فهي أُسُّ الخيرات الدينية والدنيوية معا [9].

---

(١) سورة الحجر: الآيات (٥٨- ٦٠).

(٢) تفسير السعدي : ٤٣٢.

(٣) زهرة التفاسير : ٨ / ٤٠٩٧.

(٤) السابق.

(٥) التحرير والتنوير : ١٤ / ٦١.

(٦) المراغي : ١٤ / ٣٤.

(٧) المنير للزحيلي : ١٤ / ٤٧.

(٨) سورة الأنبياء: الآية (٧١).

(٩) النسفي : ٢ / ٤١٢، المراغي : ١٧ / ٥٢.

الموضع الخامس:

قوله - تعالى-: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنْ الْغَابِرِينَ ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [(١)].

فقوله - تعالى-: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنْ الْغَابِرِينَ ﴾

أي: فأهلكناهم وأنجينا لوطا وأهله إلا امرأته جعلناها بتقديرنا وحكمتنا من الباقين في العذاب، لأنها كانت على طريقتهم راضية بقبيح أفعالهم وكانت ترشد قومها إلى ضيفان لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله- صلى الله عليه وسلم- لا كرامة لها [(٢)].

وقوله - تعالى-:﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي: وأنزلنا عليهم حجارة من سجيل وهو الحاصب، فأبادهم وخسف بهم الأرض، فبئس المطر مطر المنذرين بالعذاب الذين قامت عليهم الحجة، ووصلهم الإنذار الإلهي، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من قريتهم، وتلك هي عاقبة الفاسقين [(٣)].

الموضع السادس:

قوله - تعالى-: ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾ [(٤)].

فقوله - تعالى-: ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي: وإن لوطا من الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى قومه (أهل سدوم) لارتكابهم الفواحش، فنصحهم فأبوا نصحه، فأهلكهم الله بالزلزال أو بالصيحة والحجارة المحرقة، فجعل بلادهم عاليها سافلها، ونجاه وأهله الذين آمنوا به إلا امرأته [(٥)].

وقوله - تعالى-: ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ ﴾ أي: نجينا لوطا وأهله المؤمنين به جميعا، إلا امرأته، فإنها هلكت وبقيت في العذاب، لرضاها بفعل القوم، وتواطؤها معهم على القوم الذين يأتون إلى لوط -عليه السلام-

وقوله - تعالى-:﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾ أي: ثم دمرنا القوم الآخرين الباقين على كفرهم، كما دمرنا من بقي على كفره من أهل لوط، كامرأته التي أعرضت عن دعوة الحق، وانحازت إلى قومها المفسدين [(٦)].

الموضع السابع:

قوله - تعالى-:﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ، نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [(٧)].

فقوله - تعالى-: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي: كذبوا بالإنذارات والتهديدات التي هددهم بها نبيهم لوط، إذ لم يستجيبوا لإرشاداته وأمره ونهيه. فكانت نتيجة هذا التكذيب والفجور الذي انغمسوا فيه الهلاك والدمار[(٨)].

وقوله - تعالى-: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ أي: إننا أرسلنا عليهم ريحا ترميهم بالحصباء، وهي الحصى والحجارة، فأهلكتهم ودمرتهم إلا لوطا–عليه السلام- ومن آمن به واتبعه، فإنا أنجيناهم من الهلاك في آخر الليل أو في قطعة من الليل وهو السدس الأخير، نجوا مما أصاب قومهم

---

(١) سورة النمل: الآيتان (٥٧ - ٥٨).

(٢) المراغي : ٢٠ / ٤.

(٣) المنير للزحيلي : ٢٠ / ٦.

(٤) سورة الصافات: الآيات (١٣٣- ١٣٦).

(٥) المنير للزحيلي : ٢٣ / ١٣٧.

(٦) الوسيط للطنطاوي : ١٢ / ١١٠.

(٧) سورة القمر: الآيتان (٣٣- ٣٥).

(٨) الوسيط للطنطاوي : ١٤ / ١١٤.

وقوله - تعالى-:﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي: أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منا، وهكذا نجزى من شكرنا على نعمتنا وأطاعنا فائتمر بأمرنا، وانتهى عما نهينا عنه [(١)].
ومن خلال ما سبق من دعاء لوط – عليه السلام – يتبين :

أن عمل قوم لوط لم يسبق إليه أحد من العالمين كما أخبر القرآن الكريم على لسان لوط – عليه السلام - في قوله - تعالى-: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ﴾ [(٢)] فقد استمروا في غيهم وعملوا على نشر الفاحشة ، ولم يهتموا بدعوته– عليه السلام – وكفروا بالله وكذبوه فقالوا :﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ ﴾ [(٣)].
فتوجه إلى ربه متضرعاً طالباً نصره ونجاته من القوم المفسدين قائلاً :

﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [(٤)]. وأي فساد أعظم من ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء ! فهي مخالفة للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، كما أنها مخالفة للشرع الحنيف، فكما أنهم غيروا الفطرة وقلبوها على غير وجهها؛ فكان الجزاء من جنس العمل فقلب الله عليهم قريتهم وجعل عاليها سافلها قال - تعالى- :
﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [(٥)].

كما يتضح أن علاقة الإيمان والتوحيد أقوى وأعظم وأولى من علاقة النسب ، فكما أهلك الله – عز وجل– ابن نوح – عليه السلام– أهلك زوجة لوط – عليه السلام– وذلك لعدم إيمانهما . ونجى الله لوطا ومن آمن به وأثنى عليه فقال: ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ، وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [(٦)].

<u>دعاء شعيب – عليه السلام:</u>

قوله - تعالى-: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [(٧)].

فقوله - تعالى-: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي: احكم بيننا بالحق والفتاحة الحكومة أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل من فتح المشكل إذا بينه [(٨)].

وقوله - تعالى-:﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ أي: لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم، وتنزهك عن اتباع الظلم، واتباع الهوى في الحكم
وفتحه - تعالى- لعباده نوعان: [(٩)] فتح العلم، بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

---

(١) تفسير المراغي :٢٧ / ٩٣.

(٢) تفسير المراغي :٢٧ / ٩٣.

(٣) سورة العنكبوت : من الآية (٢٩).

(٤) سورة العنكبوت: الآية (٣٠).

(٥) سورة هود: الآيتان (٨٢ -٨٣).

(٦) سورة الأنبياء : الآية (٧٣ - ٧٥).

(٧) سورة الأعراف : من الآية (٨٩).

(٨) تفسير أبي السعود : ٣ / ٢٥١.

(٩) تفسير السعدي : ٢٩٦.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين، فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره ما يكون فاصلا بين الفريقين.

فأجابه الله – عز وجل – بقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١).

فقوله - تعالى-: ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

الفاء في قوله:(فأخذتهم) فاء السببية أي: أن ما قبلها سبب لما بعدها، أي: أنه بسبب تكذيبهم وكفرهم وصدهم عن سبيل الله - تعالى- أخذتهم الرجفة، وهي زلزال شديد، هز ديارهم هزا عنيفا فتهدمت على أهلها، وصاروا مقيمين أمواتا تحت ركامها، وذهب - تعالى- بهم كافرين، وكأنهم لم يكونوا فيها، ولم يقيموا بأرضها (٢).

وقد عبر عن عذابهم هنا (بالرجفة) و بالصيحة في قوله - تعالى-:﴿ وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (٣) كعذاب ثمود لأن الرجفة أي: الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة: ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٤).

وفي قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٥).

بين – سبحانه- أنه أرسل شعيبا إلى أصحاب الأيكة وهم إخوة مدين في النسب، والأيكة: الغيضة بين ساحل البحر ومدين، وكان عذاب مدين بالصيحة والرجفة المصاحبة لها. وعذاب أصحاب الأيكة بالسموم والحر الشديد بعد أن تجمعوا تحت ظلة من السحاب يتفيئون بظلها من وهج الشمس، فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا. فالظلة: هي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم أي: قد اجتمع على قوم شعيب ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت أرواحهم وجمدت أجسامهم (٦).

وقوله - تعالى-: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي: الذين كذبوا شعيبا وتطاولوا عليه وهددوه وأتباعه بالإخراج من قريتهم، كأنهم عندما حاقت بهم العقوبة لم يقيموا في ديارهم ناعمي البال، يظلهم العيش الرغيد، والغنى الظاهر(٧).

وقوله:(الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) فيه أربعة تأويلات: (٨).

أحدها: كأنك لم يقيموا فيها، والثاني: كأن لم يعيشوا فيها، والثالث: كأن لم ينعموا فيها، والرابع: كأن لم يعمروا فيها.

وقوله - تعالى-:﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي: الذين كذبوا شعيبا وكفروا بدعوته كانوا هم الخاسرين دينيا ودنيويا، وليس الذين اتبعوه كما زعم أولئك المهلكون وهذا التكرير مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم (٩).

---

(١) سورة الأعراف :الآيات(٩١ – ٩٢).

(٢) زهرة التفاسير : ٦ / ٢٩٠١.

(٣) سورة هود : من الآية(٩٤).

(٤) السابق. الآية (٩٥).

(٥) سورة الشعراء : الآية (١٨٩).

(٦) المنير للزحيلي : ٩ / ٩.

(٧) الوسيط للطنطاوي : ٥ / ٣٢٩.

(٨) تفسير الماوردي : ٢ / ٢٤١.

(٩) الوسيط للطنطاوي : ٥ / ٣٢٩.

ومن دعائه - عليه السلام – يتبين:

أنه قد سلك منهجا حكيما في الدعوة إلى الله كما سلكه الأنبياء من قبل فقد دعاهم إلى قضيته الأساسية ألا وهي قضية التوحيد وعبادة الله وحده، ثم أخذ يقدم الأدلة المؤيدة للدعوة كما حكى القرآن الكريم على لسانه – عليه السلام – في قوله - تعالى-:﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾[1] وقوله - تعالى-:﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[2] ثم أخذ في توجيههم إلى إصلاح معاملتهم وأخلاقهم فقال لهم ما حكاه الله عنه في قوله - تعالى-:﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لكن القوم لم يسمعوا لنصحه ولم يؤمنوا بدعوته، واستمروا في جهالتهم وضلالهم، فتارة يتهمونه بالكذب كما حكى القرآن الكريم عنهم في قوله - تعالى-: ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ ﴾[3] وتارة يتهمونه بأنه مسحور قائلين:﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ﴾[4] وأخذوا في تهديده صراحة فقالوا : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[5]

وقوله - تعالى-:﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾[6] وبعد هذا كله تمسك القوم بكفرهم، فتوجه –عليه السلام– إلى ربه متضرعاً طالبا نصره وعونه على القوم الكافرين قائلاً:﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[7] فجاءت الإجابة على الفور ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه كما جاء في قوله - تعالى-: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾[8].

أما الضالون المكذبون فقد نزل بهم العذاب في صور عديدة فأهلكهم جميعاً قال - تعالى-: ﴿ وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[9].

وقال-عز وجل-: ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[10].

كما يلاحظ أن المراد بالفتح هنا فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، بدليل ما جاء بعده من الإجابة حيث قال –سبحانه- : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[11].

---

(١) سورة الشعراء : الآية (١٨٤).

(٢) سورة الأعراف : الآية (٨٦).

(٣) سورة الشعراء : الآية (١٨٦).

(٤) سورة الشعراء : الآية (١٨٥).

(٥) سورة هود : الآية (٩١).

(٦) سورة الأعراف : الآية (٨٨).

(٧) سورة الأعراف : من الآية (٨٩).

(٨) سورة هود : من الآية (٩٤).

(٩) سورة هود : من الآية (٩٤).

(١٠) سورة الأعراف :الآية (٩١).

(١١) سورة الأعراف :الآية (٩١).

دعاء يوسف – عليه السلام –

قوله - تعالى- :﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾[1].

فقوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ استئناف بياني، لأن ما حكي قبله مقام شدة من شأنه أن يسأل سامعه عن حال تلقي يوسف- عليه السلام- فيه لكلام امرأة العزيز. وهذا الكلام مناجاة لربه الذي هو شاهدهم، فالظاهر أنه قال هذا القول في نفسه.

ويحتمل: أنه جهر به في ملئهن تأييسا لهن من أن يفعل ما تأمره به [2] أي: قال رب أنت العليم بالسر والنجوى، والقدير على كشف تلك البلوى إن السجن الذي هددت به والمكث في بيئة المجرمين على شظف العيش ورقة الحال- أحب إلى نفسي مما يدعو إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن في ترف القصور، والاشتغال بحبهن عن حبك وبقربهن عن قربك [3].

وقال (أحب إليَّ مما يدعونني إليه) ولم يقل(مما تدعوني إليه امرأة العزيز) لأنهن جميعا كن مشتركات في دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه، وبعد أن سمعن ما قالته في شأنه ربة الدار[4].

وفى قوله(مما يدعونني إليه) إيماء إلى أنهن خوفنه مخالفتها، وزين له مطاوعتها فقلن له: أطع مولاتك وأنلها ما تهوى، لتُكْفَى شرّها، وتأمن عقوبتها [5].

والضمير في قوله (إِلَيْهِ) عائد على الفاحشة المعنية بما في قوله (مِمَّا)[6].

وقوله - تعالى-: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ يحتمل وجهين: [7].

أحدهما: ما دعي إليه من الفاحشة إذا أضيف ذلك إلى امرأة العزيز.

الثاني: استمالة قلبه إذا أضيف ذلك إلى النسوة.

وكنى عن امرأة العزيز في قوله(كيدهن) بخطاب الجمع، إما لتعظيم شأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والأولى حمل اللفظ على العموم، أي: كيد النساء، وليس كيد امرأة العزيز فقط [8].

وقد أسند الدعوة إلى النساء جميعا لأنهن زين له مطاوعتها ونصحنه بالاستجابة لرغبتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار[9].

وقوله - تعالى-: ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي: أَمِل إليهن وأتبعهن وأطاوعهن من صبا يصبو إذا مال واشتاق، والصبوة :الميل إلى الهوى ومنه ريح الصبا لأن النفس تستطيبها وتميل إليها لطيب نسيمها وروحها[10].

---

(1) سورة يوسف: الآية (٣٣).

(2) التحرير والتنوير: ١٢ / ٢٦٥.

(3) تفسير المراغي: ١٢ / ١٤١.

(4) الوسيط للطنطاوي: ٧ / ٣٥٥ .

(5) تفسير المراغي: ١٢ / ١٤١.

(6) تفسير ابن عطية: ٣ / ٢٤١ .

(7) تفسير الماوردي: ٣ / ٣٤ .

(8) المنير للزحيلي: ١٢ / ٢٥٦.

(9) السابق.

(10) فتح البيان: ٦ / ٣٣٠.

وقوله - تعالى-: ﴿ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات، فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات واجتراح السيئات، فمن يعش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات لا مهرب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب والسنن العادية [(١)].

فاستجاب الله – عز وجل– دعاءه فقال: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

فقوله - تعالى-: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ أي: أجاب دعاءه الذي تضمنه كلامه، فصرف عنه كيدهن حيث ثبته على العصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن، وآثرها على اللذة الفانية إنه هو السميع لدعاء الملتجئين إليه، العليم بإخلاصهم أو بما يصلح بهم[(٢)].

وعطف جملة (فاستجاب) بفاء التعقيب إشارة إلى أن الله عجل إجابة دعائه الذي تضمنه قوله: (وإلا تصرف عني كيدهن). (واستجاب): مبالغة في أجاب(وصرف كيدهن عنه) أي: صرف أثره، وذلك بأن ثبته على العصمة فلم ينخدع لكيدها ولا لكيد خلالها في أضيق الأوقات [(٣)].

وقوله - تعالى-: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي: إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه وأخلص الدعاء له، العليم بصدق إيمانهم وبما يصلح أحوالهم[(٤)].

ومن خلال النظر في دعائه – عليه السلام – يتبين:

أنه ضرب لنا أروع الأمثلة في العفة، فقد جاء القرآن الكريم حاكياً قوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقد علق الإمام ابن القيم - رحمه الله- فقال ما ملخصه: " لقد كانت دواعي متعددة تدعو يوسف إلى الاستجابة لطلب امرأة العزيز منها: ما ركبه الله في طبع الرجل من ميله إلى المرأة. ومنها: أنه كان شابا غير متزوج.

ومنها: أنها كانت ذات منصب وجمال. وأنها كانت غير آبية ولا ممتنعة. بل هي التي طلبت وأرادت وبذلت الجهد.

ومنها: أنه كان في دارها وتحت سلطانها فلا يخشى أن تنم عليه.

ومنها: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن، وشكت حالها إليهن. ومنها: أنها توعدته بالسجن والصغار إن لم يفعل ما تأمره به.

ومنها: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يجعله يفرق بينه وبينها.

ومع كل هذه الدواعي، فقد آثر يوسف مرضاة الله ومراقبته، وحمله خوفه من خالقه على أن يختار السجن على ارتكاب ما يغضبه ... "

فينبغي على العبد أن يتمسك بالعفة، ويجعل شعاره قول يوسف – عليه السلام –

(معاذ الله) وينظر إلى الثواب الذي أعده الله – عز وجل – لأهل العفة، فقد جاء عن أبي هريرة– رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه " [(٥)].

---

(١) تفسير المراغي: ١٢ / ١٤٢.

(٢) البحر المديد: ٢ / ٥٩٤.

(٣) التحرير والتنوير: ١٢ / ٢٦٧.

(٤) تفسير المراغي: ١٢ / ١٤٢.

(٥) صحيح مسلم: باب: فضل إخفاء الصدقة ، حديث: ١٠٣١ ، ٢/ ٧١٥.

كما يلاحظ أنه – عليه السلام – مع امتلاكه لنفسه ولشهواته، أعلن افتقاره لربه – سبحانه - وفوض الأمر إليه – سبحانه – فقال: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ [١] وهذا من كمال الأدب مع الله – عز وجل– فينبغي علي العبد أن يعلن افتقاره إلى ربه في جميع أحواله، ثم يفوض الأمر لله وحده ويترك النتائج له – سبحانه – فهو العليم بعباده الحكيم في أفعاله.

<u>دعاء يونس – عليه السلام:</u>

قوله - تعالى-: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾

فقوله - تعالى-: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً ﴾ أي: واذكر نبأ يونس- عليه السلام - حين بعثه الله إلى أهل نينوى (قرية بالموصل) فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته، فأبوا عليه وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين ظهرانيهم مغاضبا لهم، وأوعدهم بالعذاب بعد ثلاث[٢].

واختلفوا في مغاضبته لمن كانت؟ على قولين:[٣].

أحدهما: أنه غضب على قومه، قاله ابن عباس.

الثاني: أنه خرج مغاضبا لربه، قاله الحسن، وغيره، و المعنى: أي: مغاضبا من أجل ربه، وإنما غضب لأجل تمردهم وعصيانهم.

وفي سبب غضبه علي قومه ثلاثة أقوال: [٤].

أحدها: أن الله - تعالى- أوحى إلى نبي يقال له: شعيا: أن ائت فلانا الملك، فقل له يبعث نبيا أمينا إلى بني إسرائيل، وكان قد غزا بني إسرائيل ملك، وسبا منهم الكثير، فأراد النبي والملك أن يبعثا يونس إلى ذلك الملك ليكلمه حتى يرسلهم، فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، قال: فهل سماني لك؟ قال: لا، قال: فهاهنا غيري من الأنبياء، فألحوا عليه، فخرج مغاضبا للنبي والملك ولقومه، هذا مروي عن ابن عباس.

الثاني: أنه عانى من قومه أمرا صعبا من الأذى والتكذيب، فخرج عنهم قبل أن يؤمنوا ضجرا، وما ظن أن هذا الفعل يوجب عليه ما جرى من العقوبة. وقيل: لما حملت عليه أثقال النبوة، ضاق بها ذرعا ولم يصبر، فقذفها من يده وخرج هاربا.

الثالث: أنه لما أوعدهم العذاب، فتابوا ورفع عنهم، قيل له: ارجع إليهم، فقال: كيف أرجع فيجدوني كاذبا؟ فانصرف مغاضبا لقومه، عاتبا على ربه.

وقوله - تعالى-:﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ بيان لما ظنه يونس- عليه السلام- حين فارق قومه غاضبا عليهم بدون إذن من ربه- عز وجل- أي: أن يونس قد خرج غضبان على قومه لعدم استجابتهم لدعوته فظن أن لن نضيق عليه، عقابا له على مفارقته لهم من غير أمرنا، أو فظن أننا لن نقضي عليه بعقوبة معينة في مقابل تركه لقومه بدون إذننا. فقوله: نقدر عليه بمعنى نضيق عليه ونعاقبه [٥].

وقوله - تعالى-:﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ ﴾ فيه قولان:[٦] أحدهما: أنها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة جوف الحوت.

---

(١) سورة يوسف: من الآية (٣٣).

(٢) تفسير المراغي : ١٧ / ٦٣.

(٣) زاد المسير : ٣ / ٢٠٩.

(٤) السابق:

(٥) الوسيط للطنطاوي : ٩ / ٢٤٤.

(٦) تفسير الماوردي : ٣ / ٤٦٦، المراغي : ١٧ / ٦٤.

الثاني: أنها ظلمة الحوت في بطن الحوت. ويحتمل ثالثا: أنها ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدة ، وظلمة الوحدة ، أي: فدعا ربه في الظلمات الثلاث التي سبق ذكرها سبحانك لا إله غيرك، ولا يعجزك شيء .

وقوله - تعالى-:﴿ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: الذين يظلمون أنفسهم، وأول هذا الدعاء تهليل وأوسطه تسبيح وآخره إقرار بالذنب. وقال الحسن وقتادة: هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته قال ذلك وهو في بطن الحوت [١].

فاستجاب الله- عز وجل – له دعاءه قائلاً: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢].

فقوله - تعالى-: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أي: أجبناه، والسين والتاء للطلب، وهما يدلان على شدة الإجابة وشدة الرفق، و التعدية بـ " اللام "، مع أن " أجاب " تتعدى بنفسها؛ للدلالة على كمال العناية به وترادف النعم عليه [٣].

وقوله - تعالى-:﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ ﴾ أي: من الحزن الذي كان فيه حين التقمه الحوت وصار في بطنه [٤].

وقوله - تعالى-:﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: مثل ذلك الإنجاء الكامل ننجي المؤمنين من غمومهم، إذا دعوا الله، مخلصين في دعائهم (كذلك ننجي المؤمنين) تذييل. والإشارة بـ (كذلك) إلى الإنجاء الذي أنجى به يونس، أي: مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين من غموم بحسب من يقع فيها أن نجاته عسيرة . وفي هذا تعريض للمشركين من العرب بأن الله منجي المؤمنين من الغم والنكد الذي يلاقونه من سوء معاملة المشركين إياهم في بلادهم [٥].

وقد بين المولى – سبحانه - استجابته ليونس – عليه السلام - فقال: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [٦].

فقوله - تعالى-: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي: لولا أنه كان في حياته من الذاكرين الله كثيرا، المسبحين بحمده، المصلين له، للبث ميتا في بطن الحوت، وصار له قبرا إلى يوم القيامة [٧].

وفي قدر مكثه في بطن الحوت خمسة أقوال: [٨] أحدها: أربعون يوما. والثاني: سبعة أيام. والثالث: ثلاثة أيام. والرابع: عشرون يوما. والخامس: بعض يوم، التقمه ضحى، ونبذه قبل غروب الشمس.

وواضح أن القرآن الكريم لم يصرح بتحديد هذه المدة، لأنه لا طائل تحت تعيينها. وفي هذا قال الإمام الرازي: " ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير" [٩].

---

(١) فتح البيان : ٨ / ٣٦٦.

(٢) سورة الأنبياء : الآية (٨٨).

(٣) زهرة التفاسير : ٩ / ٤٩٠٩.

(٤) الوسيط للطنطاوي : ٩ / ٢٤٥.

(٥) البحر المديد : ٣ / ٤٩٣، التحرير والتنوير : ١٧ / ١٣٣.

(٦) سورة الصافات : الآيات(١٤٣ – ١٤٤).

(٧) المنير للزحيلي : ٢٣ / ١٤١.

(٨) تفسير الماوردي : ٣ / ٥٥٣.

(٩) تفسير الرازي : ٢٦ / ٣٥٧.

وممَّا سبق من دعائه – عليه السلام – يتبين:

أنه قد أسرع في طلب التوبة معترفاً بذنبه، وهذا منهج الأنبياء عند وقوع الذنب والشعور بالتقصير، فعلى العبد الإسراع في التوبة دون تسويف.

كما يتضح من قوله - تعالى-: (وكذلك ننجي المؤمنين) بشارة لكل مؤمن أصابه حزن أو ضيق أو شدة، فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – في شأن هذه الدعوة " دعاء ذي النون الذي دعا به وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها امرؤ مسلم في شيء قط إلا استجيب له" [1].

كما يتبين فضل التسبيح ومكانة المسبحين عند الله – عز وجل - فقد جاءت آيات كثيرة تدل علي فضل التسبيح والذكر، ومن هذه الآيات ما يلي:

١- قوله - تعالى-: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [2].

٢- قوله - تعالى-: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [3].

٣- قوله - تعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ،وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [4].

كما جاءت السنة النبوية تبين فضل الذكر والتسبيح منها ما يلي:

١- عن أبي هريرة– رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال:

" سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه " [5].

٢- وعنه أيضاً أنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم " [6].

٣- عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله -عز وجل- " [7].

---

(١) الدعاء للطبراني: لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى١٤١٣هـ ، باب: الدعاء بدعاء يونس – عليه السلام- ، حديث: ١٢٤،١ / ٥٦.

(٢) سورة الرعد: الآية (٢٨).

(٣) سورة الأحزاب: من الآية (٣٥).

(٤) سورة الأحزاب: الآيتان (٤١-٤٢).

(٥) صحيح مسلم: باب: فضل إخفاء الصدقة ، حديث: ١٠٣١ ، ٢/ ٧١٥.

(٦) سنن ابن ماجه: باب: فضل التسبيح ، حديث: ٣٨٠٦ ، ٢/ ١٢٥١.

(٧) المستدرك: باب: كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح ، حديث: ١٨٢٥، ١/ ٦٧٣.

دعاء موسى – عليه السلام :

قد قص علينا القرآن الكريم في مواضع كثيرة مناجاته – عليه السلام – لربه وشكواه وتضرعه طالباً نصره ونجاته من القوم الكافرين وهي كما يلي:

الموضع الأول: قوله - تعالى-: ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

الموضع الثاني: قوله - تعالى-: ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (١).

الموضع الثالث: قوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢).

الموضع الرابع: قوله - تعالى-: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾.

الموضع الأول: قوله - تعالى-: ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

فقوله - تعالى-: ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ أي: الذي فعل بكم ما فعل وتوعدكم بإعادته (عسى) طمع وإشفاق، إلا أن ما يطمع الله فيه فهو واجب. والمراد بالعدو، فرعون وحزبه، فوصف عدو يوصف به الجمع (٣).

وفي التعبير (بعسى) الذي يدل على الرجاء أدب عظيم من موسى مع ربه - عز وجل- وتعليم للناس من بعده أن يلتزموا هذا الأدب السامي مع خالقهم، وفيه كذلك منع لهم من الاتكال وترك العمل، لأنه لو جزم لهم في الوعد فقد يتركون السعي والجهاد اعتمادا على ذلك

وقوله -تعالى-: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي: يجعلكم خلفاء فيها تخلفون الظالمين بعد هلاكهم. في هذا الاستخلاف قولان: أحدهما: أنه استخلاف من فرعون وقومه. والثاني: استخلاف عن الله - تعالى-، لأن المؤمنين خلفاء الله في أرضه.

وفي الأرض قولان: أحدهما: أرض مصر. والثاني: أرض الشام .

وقوله - تعالى-: ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ يحتمل وجهان:

أحدهما: أن يجعل لكم الأرض، ويوسع عليكم الرزق يمتحنكم في ذلك ويبتليكم، لا أنه يجعل لكم ذلك على غير امتحان تعملون ما شئتم في ذلك.

والثاني: يمتحنكم بالشدائد والبلايا؛ لينظر كيف تصبرون على ذلك.

ويحتمل وجها آخر وهو: أن يقول لهم: عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض، فينظر كيف تشكرون ربكم فيما أنعم عليكم. وقوله: (فينظر) كيف الواقع لكم من الجزاء والثواب.

ومعنى (فينظر كيف تعملون) التحذير من أن يعملوا ما لا يرضي الله - تعالى-، والتحريض على الاستكثار من الطاعة ليستحقوا وصف المتقين، تذكيرا لهم بأنه عليم بما يعملونه. فالنظر مستعمل في العلم بالمرئيات

فأجابه الله – عز وجل – بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

فقوله - تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ شروع في تفصيل مبادئ الهلاك الموعود به وإيذان بأنهم لم يمهلوا حتى تحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال، وتصدير الجملة بالقسم لإظهار الاعتناء بمضمونها، والمراد بآل فرعون أتباعه من القبط، وإضافة (الآل) إليه وهو لا يضاف إلا إلى الأشراف لما فيه من الشرف الدنيوي الظاهر وإن كان في نفس الأمر خسيسا (٤).

---

(١) سورة الشعراء :الآية (٦٢).

(٢) سورة القصص :من الآية (٢١).

(٣) تفسير أبي السعود :٣ / ٢٦٣، التحرير والتنوير :٩ / ٦٢، معاني القرآن للزجاج:٢ / ٣٦٧.

(٤) تفسير الآلوسي : ٥ / ٣١.

وقوله - تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ ﴾
أي: بالجدوب لقلة الأمطار والمياه، والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به، ثم اشتق منها فقيل أسنت القوم إذا قحطوا. ونقص من الثمرات بكثرة العاهات [1].

وقوله - تعالى-: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا ويرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم لآيات الله وعن ظلمهم لبني إسرائيل، ويؤمنوا بالله ربا، ويستجيبوا لدعوة موسى-عليه السلام- لأن من سنته – تعالى- أن يرسل الزواجر تنبيهات[2].

الموضع الثاني: قوله - تعالى-: ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾:[3].

فقوله - تعالى-: ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي: قال موسى هذه المقالة زجرا لهم وردعا، والمعنى: أنهم لا يدركونكم، وذكرهم وعد الله بالهداية والظفر، والمعنى: إن معي ربي بالنصر والهداية (سيهدين) أي: يدلني على طريق النجاة [4].

وإسناد المعية إلى الرب في قوله: (إن معي ربي) على معنى مصاحبة لطف الله به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عدوه. وذلك أن موسى واثق بأن الله منجيه [5].

ووجه اقتصاره على نفسه أن طريق نجاتهم بعد أن أدركهم فرعون وجنده لا يحصل إلا بفعل يقطع دابر العدو، وهذا الفعل خارق للعادة فلا يقع إلا على يد الرسول، وهذا وجه اختلاف المعية بين ما في هذه الآية وبين ما في قوله - تعالى- في قصة الغار﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [6] لأن تلك معية حفظهما كليهما بصرف أعين الأعداء عنهما، وقد أمره الله أن يضرب بعصاه البحر وانفلق البحر طرقا مرت منها أسباط بني إسرائيل، واقتحم فرعون البحر فمد البحر عليهم حين توسطوه فغرق جميعهم [7].

فاستجاب الله – عز وجل – له قائلاً: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ [8].

فقوله - تعالى-: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ الفاء في قوله(فأوحينا) للترتيب والتعقيب أي: كان عقب طلب الاستهداء كان الإيحاء استجابة لموسى -عليه السلام- كان الإيحاء لموسى أن اضرب بعصاك، و(أن) تفسيرية (الفلق) هو شق الشيء حتى ينفصل بعضه عن بعضه، ويصير كل قسم منفصلا عن الآخر في كيانه، والفرق القسم المفروق عن الآخر (والطود) هو الجبل العالي ووصفه بالعظيم لضخامته ومتانته وقوته، وهذا إعجاز حسي يجعل كل قلب يؤمن بالحق، ولو كان قلب فرعون طاغية الأرض.

والمعنى: فأوحينا إليه أن اضرب بعصاك البحر فضرب فانفلق فكان كل قطعة من الماء كالجبل العالي وصار فيه اثنا عشر طريقا، لكل سبط منهم طريق وصار فيه طاقات ينظر منها بعضهم إلى بعض، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبسا كوجه الأرض [9].

---

(١) تفسير البيضاوي : ٣ / ٣٠.

(٢) المنير للزحيلي : ٩ / ٦٠.

(٣) سورة الشعراء :الآية (٦٢).

(٤) فتح القدير : ٤ / ١١٨.

(٥) التحرير والتنوير : ١٩ / ١٣٥.

(٦) سورة التوبة: من الآية(٤٠).

(٧) التحرير والتنوير : ١٩ / ١٣٥.

(٨) سورة الشعراء :الآيات (٦٣ - ٦٦).

(٩) زهرة التفاسير : ١٠ / ٥٣٦١، المراغي : ١٩ /٦٨.

وقوله - تعالى-: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾ أي: وقربنا من البحر هنالك الآخرين وهم فرعون وجنوده، فتبعوهم [١].

والتعبير عن فرعون وجنوده (بالآخرين) للتحقير، والظاهر أن ثم للتراخي الزماني، ولعل الأولى حملها على التراخي المعنوي لما بين المعطوفين من المباعدة المعنوية [٢].

وقوله - تعالى-: ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ فالمعنى أنه - تعالى- جعل البحر يبسا في حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه لأنه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا في ذلك الماء[٣]. قيل:(ومن معه) للإشارة إلى أن إنجاءهم كان ببركة مصاحبة موسى - عليه السلام - ومتابعته، وقيل: لينتظم من آمن به - عليه السلام- من القبط إذ لو قيل وقومه لتبادر منه بنو إسرائيل [٤].

الموضع الثالث: قوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٥].

فقوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: قال: رب نجنى من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور في غير مواضعها، فيقتلون من لا يستحق القتل ومن لا يجرم إلى أحد [٦].

و(القوم الظالمون) هم قوم فرعون. ووصفهم بالظلم لأنهم مشركون ولأنهم راموا قتله قصاصا عن قتل خطأ وذلك ظلم لأن الخطأ في القتل لا يقتضي الجزاء بالقتل في نظر العقل والشرع [٧].

فاستجاب الله - تعالى- دعاءه، فجاءه جبريل - عليه السلام- وأمره بأن يسير تلقاء مدين، فسار إلى مدين في عشرة أيام. وهو قوله: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [٨].

فقوله - تعالى-: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ اختلفوا في قوله: ولما توجه تلقاء مدين:

فقال بعضهم : إنه خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه إلى الله - تعالى- وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله الله - تعالى- إلى مدين، وهذا قول ابن عباس.

وقال آخرون: لما خرج قصد مدين لأنه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم - عليه السلام - وهو كان من بني إسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله - تعالى-. ومن الناس من قال بل جاءه جبريل - عليه السلام - وعلمه الطريق [٩].

---

(١) المنير للزحيلي : ١٩ / ١٦٠.

(٢) تفسير الآلوسي : ١٠ / ٨٨.

(٣) تفسير الرازي : ٢٤ / ٥٠٨.

(٤) تفسير الآلوسي : ١٠ / ٨٨.

(٥) سورة القصص :من الآية (٢١).

(٦) تفسير المراغي : ٢٠ / ٤٩.

(٧) التحرير والتنوير : ٢٠ / ٩٦.

(٨) سورة القصص : الآية (٢٢)..

(٩) تفسير الرازي : ٢٤ / ٥٨٨.

وقوله - تعالى-: ﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي: قال على سبيل الرجاء في فضل الله - تعالى- وكرمه: عسى ربي الذي خلقني بقدرته، وتولاني برعايته وتربيته، أن يهديني ويرشدني إلى أحسن الطرق التي تؤدى بي إلى النجاة من القوم الظالمين.

فالمراد بسواء السبيل: الطريق المستقيم السهل المؤدى إلى النجاة، من إضافة الصفة إلى الموصوف أي: عسى أن يهديني ربي إلى الطريق الوسط الواضح [١].

الموضع الرابع: قوله - تعالى-: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ [٢].

فقوله - تعالى-: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أي: فدعا موسى ربه حين كذبوه وهموا بقتله بأن هؤلاء قوم مكذبون رسلك مشركون بك [٣].

فاستجاب الله- - تعالى- – دعاءه – عليه السلام – بقوله -جل شأنه- : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ، وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ ﴾ [٤].

فقوله - تعالى-: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ أي: فأسر إذ كان الأمر كذلك بعبادي، وهم بنو إسرائيل، ومعنى الكلام: فأسر بعبادي الذين صدقوك وآمنوا بك، واتبعوك دون الذين كذبوك منهم، وأبوا قبول ما جئتهم به من النصيحة منك وقال: (فأسر بعبادي ليلا) لأن معنى ذلك: سر بهم بليل قبل الصباح. وقوله (إنكم متبعون) أي: إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم في آثاركم [٥].

وقوله (فأسر بعبادي) إيجاز بحذف كلام، أي وقلنا له: فأسر [٦].

وقوله - تعالى-: ﴿ وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ ﴾ أي: إنه لما ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق فلقتين ودخل بنو إسرائيل البحر فاجتازوه أراد موسى أن يضرب البحر ليلتئم كما كان حتى لا يدخله فرعون وجنده فيدركوهم فقال له ربه - تعالى- (اترك البحر رهوا) أي ساكنا كما كان حين دخلتموه حتى إذا دخل فرعون وجنوده أطبقناه عليهم إنهم جند مغرقون وهذا الذي حصل فنجى الله موسى وبني إسرائيل وأغرق فرعون وجنوده أجمعين

ومن خلال ما سبق من دعاء موسى – عليه السلام – يتبين:

أن سؤال الله النجاة من الظالمين هو دأب الأنبياء – عليهم السلام– فعلى المسلم أن يقتدي بهم فقد قال الله رب العالمين: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ ﴾ [٧] وقد قال المؤمنون من قوم موسى – عليه السلام- ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [٨].

---

(١) الوسيط للطنطاوي : ١٠ / ٣٩٢.

(٢) سورة الدخان: الآية (٢٢).

(٣) المنير للزحيلي : ٢٥ / ٢٢١ .

(٤) سورة الدخان: الآيات (٢٣ -٢٤).

(٥) تفسير الطبري : ٢٢ / ٢٨.

(٦) المنير للزحيلي : ٢٥ / ٢١٨ .

(٧) سورة الأنعام: من الآية (٩٠).

(٨) سورة يونس: من الآية (٨٥ - ٨٦).

كما نلاحظ أنه – عليه السلام- أخذ بالأسباب، ثم لجأ إلى الله – عز وجل – وسأله أن ييسر له الأمور، وهذا من كمال التوكل، فعلى العبد أن يفرغ ما في وسعه في بذل الأسباب، فإذا اختلطت عليه الأمور ولم يترجح عنده أحد الأمرين، فعليه أن يسأل ربه أن يهديه إلى الحق والصواب كما فعل موسى – عليه السلام – حيث قال: ﴿ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[1].

كما يتبين أن جلب المنافع، ودفع المضار يتوقف على توفيق الله للعبد، فالخلق كلهم مفتقرون إلى الله - تعالى- في الأمور كلها، ألا ترى إلى شعيب- عليه السلام- وهو يقر بهذه الحقيقة حين قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [2]

<u>دعاء محمد – صلى الله عليه وسلم –</u>

قد قص علينا القرآن الكريم في مواضع كثيرة جانب من أدعية النبي – صلى الله عليه وسلم- في طلب الخلوص والنجاة من القوم الكافرين وهي كما يلي:

الموضع الأول: قوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [3].

الموضع الثاني: قوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [4].

الموضع الثالث: قوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [5].

الموضع الأول: قوله - تعالى-:﴿ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

فقوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ استئناف ابتدائي بعد ما مضى من وصف رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وإجمال أصلها وأمره بإنذارهم وتسجيل التبليغ، قصد من هذا الاستئناف التلويح إلى عاقبة أمر هذا الدين المرجوة المستقبلة لتكون قصة هذا الدين وصاحبه مستوفاة المبدأ والعاقبة على وزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل السابقين. أي: قال الرسول: رب افصل بيني وبين من كذبني من مشركي قومي، وكفر بك وعبد غيرك، بإحلال عذابك ونقمتك به بالعدل الذي يقتضى تعجيل العذاب به وتشديده عليه [6].

(رب احكم بالحق) فيه وجوه: [7]. أحدها: أي: رب اقض بيني وبين قومي بالحق أي: بالعذاب. كأنه قال: اقض بيني وبين من كذبني بالعذاب، وقال قتادة: أمره الله - تعالى- أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوة فلا جرم حكم الله - تعالى- عليهم بالقتل يوم بدر. وثانيها: افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرني عليهم.

---

(1) سورة القصص : من الآية (٢٢).

(2) سورة هود: من الآية (٨٨).

(3) سورة الأنبياء : الآية (١١٢).

(4) سورة المؤمنون: الآية(٩٤).

(5) سورة المؤمنون: الآيات (٩٧ - ٩٨).

(6) التحرير والتنوير : ١٧ / ١٧٥ ، تفسير المراغي : ١٧ / ٨٠.

(7) تفسير الرازي : ٢٢ / ١٩٥.

وقوله- تعالى-:﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أي: من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل والتكذيب كأنه -سبحانه- قال: قل داعيا لي: (رب احكم بالحق) وقل متوعدا للكفار: (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) أي: قل لأصحابك المؤمنين، وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الأباطيل، أي: من العون على دفع أباطيلهم.
وثانيها: كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله - صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين وخذلهم.
فاستجاب الله – عز وجل – دعاء نبيه - صلى الله عليه وسلم- فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فأنزل بهم العذاب يوم بدر ما أصابهم [١].

الموضع الثاني: قوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٢].
فقوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: قريبا لهم فيما هم فيه من العذاب، وفيه إيذان بفظاعة ما وعدوه من العذاب، وأنه يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد أن يحيق به، ورد لإنكارهم إياه واستعجالهم على طريقة الاستهزاء، وقيل: أمر به -صلى الله عليه وسلم- هضما لنفسه، ويجوز أن يسأل النبي المعصوم ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهارا للعبودية وتواضعا لربه. وتكرير النداء لإبراز كمال الضراعة والابتهال [٣].

الموضع الثالث: قوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [٤].
فقوله - تعالى-: ﴿ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ أي: وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت من المحاسن، التي من جملتها دفع السيئة بالحسنة، وأصل الهمز: النخس، ومنه: مهماز الرائض، شبه حثهم للناس على المعاصي بهمز الرائض الدواب على الإسراع والوثب. وجمع همزات لتنوع الوساوس وتعدد المضاف إليه [٥].
وقوله - تعالى-: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ أمر - صلى الله عليه وسلم- بأن يعوذ به - تعالى- من حضورهم بعد ما أمر بالعوذ من همزاتهم للمبالغة في التحذير من ملابستهم وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهال في الاستدعاء أي: أعوذ بك من أن يحضروني ويحوموا حولي في حال من الأحوال وخصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن [٦].
ومن دعائه – صلى الله عليه وسلم – نلحظ:
أنه تضرع إلى ربه – عز وجل – طالباً نصره وعونه على الكافرين، متوسلاً بصفة من صفاته (المستعان) والاستعانة: هي طلب العون من الله، فالله وحده هو الذي بيده كل شيء والمستعان في كل شيء والنبي – صلى الله عليه وسلم – لم يطلب العون والنصر على الكافرين فحسب، ولكنه – صلى الله عليه وسلم – علمنا كيف نطلب العون من الله –عز وجل– في الأمور كلها فقال– صلى الله عليه وسلم–:
اللهم أعني على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك " فالعبد محتاج إلى عون ربه في كل شيء على فعل الطاعة وعلى ترك المعصية قال - تعالى-: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

---

(١) تفسير أبي السعود : ٦ / ٩٠.
(٢) سورة المؤمنون: الآية(٩٤).
(٣) البحر المديد : ٣ / ٥٩٦.
(٤) سورة المؤمنون: الآيات (٩٧ - ٩٨).
(٥) البحر المديد : ٣ / ٥٩٧.
(٦) تفسير أبي السعود : ٦ / ١٥٠ بتصرف .

كما نلاحظ أنه – صلى الله عليه وسلم – طلب النصر من الله مع أن الله قد عصمه فقال- تعالى-: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

فهذا من كمال تفويض الأمر لله، فالأمور كلها بيديه سبحانه قال - تعالى-:﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [2] ألا ترى إلي يعقوب – عليه السلام – حين فوض أمره لله قائلاً: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[3].

كما نلاحظ أنه – صلى الله عليه وسلم – استعاذ بالله من وساوس الشياطين ومخالطتهم في أموره وأفكاره، وهذا يدل على مدى خطورة هواجس ووساوس الشياطين للإنسان، فهو العدو المستمر للمسلم إلى قيام الساعة إنه لكم عدم مبين، ولقد تكرر في القرآن الكريم الأمر بالاستعاذة من الشيطان ونزغاته ، ومن ذلك :

- قال - تعالى-:﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [4].

-وقال - سبحانه-: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [5] فينبغي على المسلم أن يستعيذ بالله دائماً في الأمور كلها اقتداءً بالنبي – صلى الله عليه وسلم -.

وفي ختام هذا الفصل يتضح أن هؤلاء الأخيار الذين اصطفاهم الله لرسالته، جاهدوا في الله حق جهاده وعملوا على نشر دين الله بكل ما استطاعوا من قوة، وعندما طلبوا العون والنصر منه – سبحانه – كانت الإجابة على الفور كما رأينا في تضرعهم إلى خالقهم – عز وجل – ؛ وذلك لأن هذا وعد الله لهم كما أخبر القرآن الكريم في قوله - تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُم الْغَالِبُونَ ﴾ [6].

وكما يلاحظ أنهم عذبوا بألوان من العذاب مختلفة كما أخبر القرآن الكريم عن ذلك في قوله - تعالى-: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [7] وصدق ربنا – تعالى شأنه-: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [8].

---

(١) سورة المائدة : من الآية (٦٧).

(٢) سورة هود : الآية (١٢٣).

(٣) سورة يوسف : الآية (١٨).

(٤) سورة النحل : الآية (٩٨).

(٥) سورة الناس : من الآية (١ - ٦).

(٦) سورة الصافات: الآيات (١٧١- ١٧٣).

(٧) سورة العنكبوت: الآية (٤٠).

(٨) سورة المدثر: من الآية (٣١).

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم:

ثانيا: كتب التفسير:

- الإتقان في علوم القرآن : لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي(ت: ٩١١هـ)،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى (ت : ٩٨٢هـ) ، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت : ١٣٩٣هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع بيروت – لبنان عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفي صادق بن عبدالرازق بين سعيد بن أحمد بن عبدالقادر الرافعي (١٣٥٦هـ) ،الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة : الثامنة ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لناصر الدين لأبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ .
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر لأبي بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- بحر العلوم: لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ) .
- البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت ، الطبعة: ١٤٢٠ هـ .
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت: ١٢٢٤هـ) ، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة ، الطبعة: ١٤١٩ هـ
- البرهان في علوم القرآن : لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) ،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ،الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
- التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) ، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ
- تفسير ابن فورك: محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، لأبي بكر (ت: ٤٠٦هـ) تحقيق: علال عبد القادر بندويش (ماجستير)، الناشر: جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠ - ٢٠٠٩ م.

- تفسير البغوي: لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .
- تفسير التستري: لأبي محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (ت: ٢٨٣هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: منشورات محمد علي بيضون / دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ .
- تفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، الناشر: دار الحديث – القاهرة ، الطبعة: الأولى.
- التفسير الحديث: لدروزة محمد عزت ، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، الطبعة: ١٣٨٣هـ.
- تفسير الشعراوي: لمحمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ) ، الناشر: مطابع أخبار اليوم .
- تفسير الفاتحة والبقرة : محمد بن صالح بن محمد العثيمين(ت: ١٤٢١هـ)،الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت : ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب ، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.
- تفسير القرآن العظيم: لأبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي(ت ٧٧٤ه)، تحقيق: سامي بن محمد سلامه،الناشر: دار طيبه للنشر والتوزيع، ط(٢)،١٤٢٠ه-١٩٩٩م.
- تفسير القرآن: لأبي المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم ، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- التفسير القرآني للقرآن: لعبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة .
- تفسير الماتريدي : لمحمد بن محمد بن محمود، لأبي منصور الماتريدي(ت: ٣٣٣هـ) تحقيق: د. مجدي باسلوم ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- تفسير الماوردي :لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
- تفسير المراغي: لأحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .
- تفسير المنار: لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني(ت: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م .
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج : د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ .

- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه : لأحمد بن عبد الله الزهراني، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ،الطبعة: الأعداد ٨٥ - ١٠٠ السنوات ٢٢ - ٢٥ المحرم ١٤١٠ - ذو الحجة ١٤١٣ هـ .
- تفسير النسفي: لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (٧١٠هـ) راجعه وقدم له : محيى الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب ، بيروت ط (١)١٤١٩هـ-١٩٩٨م .
- التفسير الوسيط للزحيلي: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي ، الناشر: دار الفكر – دمشق ،الطبعة : الأولى - ١٤٢٢ هـ.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: لمحمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى .
- تفسير عبد الرزاق : لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: د. محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، سنة ١٤١٩هـ .
- التفسير والمفسرون: د / محمد السيد حسين الذهبي (ت: ١٣٩٨هـ) ، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.
- التنزيل لعلوم التسهيل، لابن جُزي محمد بن أحمد محمد الغرناطي الكلبي(ت٧٤١ه) ط(٤) بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للسعدي ، عبد الرحمن بن ناصر (ت : ١٣٧٦هـ) : ، تحقيق : ابن عثيمين . ط (١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م) . بيروت : مؤسسة الرسالة.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري ، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد (ت : ٣١٠ هـ) ط (١٤٠٥هـ) . بيروت : دار الفكر.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، لأبي جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي(ت٦٧١ ه)، تحقيق: احمد البردوني، وإبراهيم أطفيش ، دار :الكتب المصرية -القاهرة ط (٢) ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- الجدول في إعراب القرآن الكريم: لمحمود بن عبد الرحيم صافي (ت: ١٣٧٦هـ)، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت ، الطبعة: الرابعة،١٤١٨هـ .
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٨.
- الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير: عدنان محمد زرزور ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت .
- الدر المنثور: لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ،الناشر: دار الفكر – بيروت .
- درة التنزيل وغرة التأويل: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ) ، تحقيق: د/ محمد مصطفى آيدين ، الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود (ت : ١٢٧٠هـ) ، بلا ط وسنة نشر . بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- زاد المسير في علم التفسير: لجمال الدين لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ .
- زهرة التفاسير: لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: ٩٧٧هـ) ، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة ، عام النشر: ١٢٨٥ هـ .
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسلأبي ري (ت: ٨٥٠هـ)، تحقيق:الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ .
- فتحُ البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ) ، قدم له وراجعه: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، الناشر: المَكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت ، عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
- فتح القدير: للشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.
- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ)،الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة،الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : لأبى القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة : الثالثة ١٤٠٧ هـ .
- لباب التأويل في معاني التنزيل: لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم لأبي الحسن، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ)، تحقيق: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ .
- اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني(ت : ٧٧٥هـ)، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م .
- لطائف الإشارات: لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ، الطبعة: الثالثة .
- مباحث في التفسير الموضوعي : لمصطفى مسلم، الناشر: دار القلم، الطبعة: الرابعة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- محاسن التأويل: لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ) ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ه.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ.
- مختصر تفسير ابن كثير: لمحمد علي الصلأبي ني، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان،الطبعة: السابعة، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م.
- مختصر تفسير البغوي: لعبد الله بن أحمد بن علي الزيد ، الناشر: دار السلام للنشر والتوزيع – الرياض ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ .
- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: لمحمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا (ت: ١٣١٦هـ)، تحقيق: محمد أمين الصناوي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٧ هـ .
- معاني القرآن وإعرابه: للزجاج ، أبي إسحق إبراهيم بن السري (ت : ٣١١هـ) ، شرح وتحقيق : عبدالجليل عبده شلبي . ط(١) . عالم الكتب ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- مفاتيح الغيب ، لأبى عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) ٢٦٥/٥، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠هـ.
- المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) ، تحقيق : محمد سيد كيلاني . بلا ط وسنة نشر – بيروت : دار المعرفة.
- مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبدالعظيم الزرقاني (١٣٦٧هـ) مطبعة عيسي البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة: الثالثة .
- المنتخب في تفسير القرآن الكريم: للجنة من علماء الأزهر ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر، طبع مؤسسة الأهرام ، الطبعة: الثامنة عشر، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .
- موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور: أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين ، الناشر : دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- الموسوعة القرآنية المتخصصة : لمجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر،عام النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م
- نفحات من علوم القرآن : لمحمد أحمد محمد معبد (ت: ١٤٣٠هـ)،الناشر: دار السلام - القاهرة، الطبعة: الثانية،: ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- النكت في القرآن الكريم: لعلي بن فَضَّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني، لأبي الحسن (٤٧٩هـ)، دراسة وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- الواضح في علوم القرآن: لمصطفى ديب البغا، محيى الدين ديب مستو،الناشر: دار الكلم الطيب دار العلوم الإنسانية - دمشق،الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

- كتب الحديث:
- الأدب المفرد بالتعليقات: للبخاري، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري ، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي : للمباركفوري ، أبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (ت : ١٣٥٣هـ). بلا ط وسنة نشر . بيروت : دار الكتب العلمية.
- الجامع الصحيح : محمد بن إسماعيل لأبي عبدالله البخاري ، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر : دار طوق النجاة ، الطبعة : الأولي ١٤٢٢هـ.
- الدعاء للطبراني: لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، لأبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى١٤١٣هـ.
- سنن ابن ماجه : ابن ماجة لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت: ٢٧٣هـ)،تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
- سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)،تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
- سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، لأبي عيسى (ت: ٢٧٩هـ)،تحقيق:أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)ومحمد فؤاد عبد الباقي(جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف(جـ٤، ٥) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر،الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
- سنن الدارمي: لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت: ٢٥٥هـ) ، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية،الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠م.
- سنن النسائي: لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح لأبي غدة ، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية: ١٤٠٦ – ١٩٨٦.
- شعب الإيمان: لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، لأبي بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- صحيح ابن حبان : لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، لأبي حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣ .
- صحيح ابن خزيمة: لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسلأبي ري (ت: ٣١١هـ)، المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي ،الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.
- صحيح البخاري: لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت : ٢٥٦هـ)، تحقيق : مصطفي ديب البغا .ط (٣) . بيروت : دار ابن كثير – اليمامة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

- صحيح مسلم : لأبي الحسين بن الحجاج القشيرى النيسلأبي ري (ت : ٢٦١هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، بلا ط وسنة نشر . بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- صحيح مسلم بشرح النووي : لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري (ت : ٦٧٦هـ)، ط(٢) . بيروت : دار إحياء التراث العربي . ١٣٩٢هـ .
- عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد: أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط بن عبد الله بن إبراهيم بن بُدَيْح، الدِّيْنَوَرِيُّ، المعروف بـ «ابن السُّنِّي» (ت: ٣٦٤هـ)، تحقيق: كوثر البرني ، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لابن حجر ، أحمد بن على العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ)، تحقيق : عبدالعزيز بن عبدالله بن باز . ط (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م) . القاهرة : دار الحديث .
- المخلصيات: لمحمد بن عبد الرحمن بن العباس بن عبد الرحمن بن زكريا البغدادي المخَلِّص (ت: ٣٩٣هـ) ، تحقيق: نبيل سعد الدين جرار،الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لدولة قطر،الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسلأبي ري المعروف بابن البيع(ت: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل: لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)،تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت: ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).
- مسند السراج : لأبي العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مهران الخراساني النيسلأبي ري المعروف بالسَّرَّاج (ت: ٣١٣هـ)،تحقيق وخرج أحاديثه وعلق عليه: الأستاذ إرشاد الحق الأثري،الناشر: إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد باكستان، الطبعة: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- مسند الشاميين: لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، لأبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٤٠٥ – ١٩٨٤.
- المعجم الأوسط: لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، لأبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة .
- معرفة السنن والآثار: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، لأبي بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)،تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي ،الناشرون: جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي - باكستان)، دار قتيبة (دمشق -بيروت)، دار الوعي (حلب - دمشق)، دار الوفاء (المنصورة - القاهرة)،الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

- مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها: لأبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر ألخرائطي ألسامري (ت: ٣٢٧هـ) ، تحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري ، الناشر: دار الآفاق العربية، القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .
- المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها: لأبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (ت: ٣٢٧هـ) ، انتقاء: لأبي طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدير،الناشر: دار الفكر - دمشق سورية ، سنة النشر:١٤٠٦ هـ .
- موطأ مالك: لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ) تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف ، الناشر: المكتبة العلمية ، الطبعة: الثانية.

كتب اللغة والمعاجم:

- إتحاف السادة المتقين بشرح اسرار إحياء علوم الدين للزبيدي ، محمد بن محمد الحسيني المشهور بمرتضى (ت : ١٢٠٥هـ) : . بلا ط وسنة نشر . بيروت : دار إحياء التراث العربي.
- البلاغة العربية: لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق،الدار الشامية- بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .
- تاج العروس من جواهر القاموس : للزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت : ١٢٠٥هـ) تحقيق : مجموعة من المحققين . بلا ط وسنة نشر. دار الهداية .
- التعريفات للجرجاني : لعلى بن محمد بن على (ت : ٨١٦هـ) ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، ط (١) ، بيروت : دار الكتاب العربي . ١٤٠٥ هـ .
- جمهرة اللغة: لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ) ، تحقيق: رمزي منير بعلبكي ، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م .
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)،تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،الناشر: دار العلم للملايين - بيروت،الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات: محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير ابن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني (ت: ١٣٨٢هـ)،تحقيق: إحسان عباس،الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت ص. ب: ٥٧٨٧/١١٣،الطبعة: ٢، ١٩٨٢.
- القاموس المحيط: مجد الدين لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)،تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة،الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان،الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- كشاف اصطلاحات الفنون١٤٢/٢ للتهانوي ، محمد على بن على بن محمد (ت : ١١٥٨هـ) ، وضع حواشيه : أحمد حسن بسج .ط (١) . بيروت : دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : لأبي البقاء ، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت : ١٠٩٤هـ) ، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري .ط (٢) . بيروت : مؤسسة الرسالة . ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

- لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، لأبي الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ)،الناشر: دار صادر - بيروت،الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ
- مختار الصحاح: زين الدين لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)،تحقيق: يوسف الشيخ محمد،الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا،الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- المخصص: لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)،تحقيق: خليل إبراهم جفال ،الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت،الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
- المعجم الوسيط : لمصطفي إبراهيم ، وآخرين ، أشرف على طبعه : عبد السلام هارون . بلا ط وسنة نشر. طهران : المكتبة العلمية.
- معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت : ٣٩٥هـ) : تحقيق : عبدالسلام محمد هارون . ط (٢) . بيروت : دار الجيل ، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير ، مجد الدين لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت : ٦٠٦هـ) ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي . ط (١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م) . بيروت : المكتبة العلمية.
- الهادي إلى لغة العرب ١/ ما بعد الغلاف، للكرمي ، حسن سعيد (ت : ٢٠٠٧م). طبعة (١) . بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر. ١٤١١هـ- ١٩٩١م // وينظر: سنة الوفاة على الموقع الإلكتروني: www.wikipedia.org.

كتب التراجم:

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ) ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة : لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود ، الناشر: دار الكتب العلمية ، الطبعة: الأولى ، سنة النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م .
- الأعلام : لخير الدين بن محمود بن محمد الزركلي (ت ١٣٩٦هـ) ، دار العلم للملايين ط (١٥) أيار - ٢٠٠٢ م.
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: للزركلي ، خير الدين (ت : ١٩٧٦م). ط (٦) . بيروت : دار العلم للملايين . ١٩٨٤م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة: لجمال الدين لأبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت: ٦٤٦هـ) الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت ، الطبعة: الأولى١٤٢٤ هـ.

- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: مجد الدين لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)،الناشر: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع ،الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
- تاج التراجم: لأبي الفداء زين الدين لأبي العدل قاسم بن قُطلُوبغا السودوني الجمالي الحنفي (ت: ٨٧٩هـ)، تحقيق : محمد خير رمضان يوسف،الناشر: دار القلم - دمشق ، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.
- التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، لأبي عبد الله (ت: ٢٥٦هـ)، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.
- تاريخ دمشق: لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت:٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة: لأبي الفداء زين الدين قاسم بن قُطْلُوْبَغَا السُّوْدُوْنِي (نسبة إلى معتق أبيه سودون الشيخوني) الجمالي الحنفي (ت: ٨٧٩هـ)، دراسة وتحقيق: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان،الناشر: مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة صنعاء، اليمن،الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : للعسقلاني ، أحمد بن على بن محمد الشهير بابن حجر (ت : ٨٥٢هـ). بلا معلومات نشر.
- ديوان الإسلام: لشمس الدين لأبي المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (١١٦٧هـ)، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط (١)١٤١١ هـ- ١٩٩٠م.
- الرد الوافر: لمحمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (ت: ٨٤٢هـ) ، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣ .
- سير أعلام النبلاء : لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)- دار الحديث- القاهرة-الطبعة: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٢١٣، لمخلوف ، محمد بن محمد (ت : ١٣٦٠هـ) ، بلا ط وسنة نشر .دار الفكر.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : للسخاوي ، شمس الله بن محمد بن عبدالرحمن (ت : ٩٠٢هـ) :. بلا طبعة وسنة نشر . بيروت : دار مكتبة الحياة.
- الطبقات الكبرى لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت: ٢٣٠هـ) ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، ناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة: الأولى ،١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- طبقات المفسرين للسيوطي ،عبدالرحمن بن أبي بكر (ت : ٩١١هـ) ، تحقيق : على محمد عمر . ط (١) . القاهرة : مكتبة وهبة . ١٣٩٦هـ.

- لسان الميزان : لأبي الفصل أحمد بن على بن محمد بن أحمد حجر العسقلاني [٨٥٢هـ] ، تحقيق : عبدالفتاح لأبي غدة ، الناشر : دار البشائر الإسلامية ،الطبعة : الأولي ٢٠٠٢م.
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: لابن منظور (ت: ٧١١هـ) ، تحقيق: وحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع ، الناشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا ، الطبعة: الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٤م .
- معجم المؤلفين: لعمر رضا كحالة (ت: ١٤٠٨هـ) ،الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : للأتابكي ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى (ت ٨٧٤هـ) ، قدم له : محمد حسين شمس الدين . ط (١) . بيروت : دار الكتب العلمية . ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: لعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، لأبي البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ) تحقيق: إبراهيم السامرائي ،الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن ،الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- الوافي بالوفيات: لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت: ٧٦٤هـ) ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر:١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت: ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس،الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الجزء: ٢ - الطبعة: ٠، ١٩٠٠.

كتب الزهد والرقائق:

- أحلي الكلام في مناجاة ذي الجلال والإكرام: محمد علي محمد إمام، الناشر: مطبعة السلام، ميت غمر - مصر، الطبعة: الأولي، ٢٠٠٧ م.
- تربية القرآن يا ولدي: لمحمود محمد غريب: من علماء الأزهر الشريف ، الناشر: مطبعة الشعب - بغداد،الطبعة: الأولى - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- دعوة الرسل عليهم السلام: لأحمد أحمد غلوش ، الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ : شحاتة محمد صقر،الناشر: دَارُ الفُرْقَان للتُرَاث، البحيرة (مصر).
- شأن الدعاء : للخطابي ، أبي سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم (ت : ٣٨٨ هـ)، تحقيق : أحمد يوسف الدقاق . ط (٣) . دمشق : دار الثقافة العربية ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
- شرح الدعاء من الكتاب والسنة: لأبي عبد الرحمن ماهر بن عبد الحميد بن مقدم، شرحه: ماهر بن عبد الحميد بن مقدم ، صححه وخرّج أحاديثه وقدم له مؤلف الأصل ، الناشر: مطبعة سفير، الرياض .
- شروط الدعاء وموانع الإجابة في ضوء الكتاب والسنة: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: لشمس الدين، لأبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت : ١١٨٨هـ) ، الناشر : مؤسسة قرطبة – مصر، الطبعة : الثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م .
- فقه الأدعية والأذكار: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
- كتاب الذكر والدعاء في ضوء الكتاب والسنة: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- من عجائب الدعاء : لخالد بن سليمان بن علي الربعي، الناشر: دار القاسم للنشر، الرياض،الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- المنهاج في شعب الإيمان: للحليمي: لأبي عبدالله الحسين بن الحسن(ت : ٤٠٣هـ)، تحقيق: حلمي محمد فودة، ط(١) دار الفكر. ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

كتب العقيدة:

- الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية : للعروسي لأبي عبد الرحمن جيلان بن خضر.ط (١) . الرياض : مكتبة الرشد . ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦م.
- الرسل والرسالات : للأشقر ، عمر سليمان عبدالله : ط (٤) . الكويت : مكتبة الفلاح – مكتبة دار النفائس، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م .
- شرح العقيدة الطحاوية : للحنفي ابن أبي العز (ت : ٧٩٢هـ) ، ط (٤) . بيروت : المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ .
- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم: لابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، لأبي عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (ت: ٨٤٠هـ).. حققه وضبط نصه، وخرج أحاديثه، وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .
- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت: ١٤٢١هـ)، الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، ١٤٢١هـ /٢٠٠١ م.

كتب الفقه:

- نزهة الأعين النواظر في علم الوجود والنظائر : لابن الجوزي ، جمال الدين لأبي الفرج عبد الرحمن (ت : ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي ط (١) . بيروت : مؤسسة الرسالة . ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول: لأبي المنذر محمود بن محمد بن مصطفي المنياوي،الناشر المكتبة الشاملة، مصر، الطبعة: الأولي، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م.
- المهذب في علم أصول الفقه المقارن: لعبد الكريم بن علي بن محمد النملة ، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض ، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

كتب عامة :

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، لأبي جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- دعاء الأنبياء والصالحين : محمد متولي الشعراوي : ، جمع وإعداد سعيد عثمان ، الناشر : الدار العالمية للكتب والنشر ، الطبعة : الأولى ١٩٩٨م .
- دعاء الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم : عطية محمد شعبان ، الناشر : دار التقوى ، الطبعة : الثانية ، ٢٠٠٥م.
- صراع بين الحق والباطل : لمـحمد سعد صادق : ، ط (٤) . الرياض : دار اللواء للنشر والتوزيع . ١٣٩٨ هـ- ١٩٨٧م .
- المختار في المواعظ والأحكام والأخبار : قاسم بن محمد الشماعى الرفاعي ، الناشر : بيروت المكتب الإسلامي ، الطبعة : الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م .
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم : للبلخي ، مقاتل بن سليمان (ت : ١٥٠هـ) : ، تحقيق : حاتم صالح الضامن .ط (١). دبي: مركز جُمعه الماجد للثقافة والتراث، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م .

كتب ابن القيم:

- بدائع الفوائد : لابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ت : ٧٥١هـ)، تحقيق : هشام عبدالعزيز عطا وآخرون .ط (١) . مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز . ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
- جلاء الأفهام : لابن القيم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط عبدالقادر الأرناؤوط : الناشر : دار العروبة – الكويت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م .
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)،الناشر: دار المعرفة - المغرب،الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- زاد المعاد : لابن القيم ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، الطبعة : السابعة والعشرون ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي ، الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت . الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة : لابن القيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت .
- الوابل الصيب من الكلم الطيب : ابن قيم الجوزية ، تحقيق سيد إبراهيم ، الناشر : دار الحديث – القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٩م.

مراجع ابن تيمية :

- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية : لابن تيمية ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، الناشر : مجمع الملك فهد الطبعة الأولى : ١٤٢٦هـ
- مجموع الفتاوى: تقي الدين لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني(ت: ٧٢٨هـ) ، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم،الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ،عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

كتب التاريخ:

- البداية والنهاية: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)،تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي،الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

فهرس المحتويات